47 سلسلة الدروس الثقافيّة

النصر الإلهيّ

سنن النصر في القرآن الكريم

شبكة المعارف الإسلامية

مركز نون للتأليف والترجمة

النصر الإلهي

سنن النصر في القرآن الكريم

جمعيّة المعارف الإسلاميّة الثقافيّة

بيروت . لبنان . المعمورة . الشارع العام

هاتف: ٠١/٤٧١٠٧٠

ص.ب. ٢٥/٣٢٧ . ٢٤/٥٣

اسم الكتاب:	النصر الإلهي، سنن النصر في القرآن الكريم
إعداد:	مركز نون للتأليف والترجمة
نشر:	جمعيّة المعارف الإسلاميّة الثقافيّة
الطبعة الأولى:	2015م - 1436هـ

النصر الإلهي

سنن النصر في القرآن الكريم

مركز نون للتأليف والترجمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرس

المقدّمة 9

1. قاموس النصر ومفرداته في القرآن 11
موعظة قرآنية 13
الغلبة في القرآن 14
الغلبة والغلب في اللغة 15
كلمة الفتح في القرآن الكريم 16
كلمة الفتح في اللغة 16
كلمة الفوز في القرآن الكريم 17
كلمة الظفر في القرآن الكريم 18
كلمة ظهر في القرآن الكريم 19
كلمة النصر في القرآن الكريم 20

2. مفهوم النصر في القرآن الكريم 25
موعظة قرآنية 27
معاني النصر في القرآن الكريم 27
المعنى الأساس لكلمة النصر 31
حقيقة النصر وبعض مصاديقه 32
أهداف الحرب والجهاد 33
النصر على المدى البعيد 35

3. موقع النصر في حسابات الجهاد 39
موعظة قرآنية 41

معنى إحدى الحسنيين في القرآن 42
معان أخرى للآية 42
موقع النصر في القتال والمواجهة المسلّحة 44
موقع النصر في الجهاد 44
موقع النصر في الدفاع 45
شبهة أن الإسلام دين حرب 45

4. فلسفة نسبة النصر إلى الله 49
موعظة قرآنية 51
نسبة بعض النعم إلى الله في القرآن 52
نسبة النصر إلى الله 54
الدعاء بالنصر وطلبه من الله 54
التوحيد الأفعالي ونسبة النصر إلى الله 55
إلهيّة النصر بإلهيّة قيمته 58

5. هل النصر سنّة؟ (1) نماذج من السّنن القرآنية 63
موعظة قرآنية 65
تعريف السنّة 65
سنن الله في القرآن الكريم 67
مداليل الآيات الكريمة في السنن 68

6. هل النصر سنّة؟ (2) سنن النصر الإلهيّ في القرآن الكريم 73
موعظة قرآنية 75
السنّة بحسب رأي الشهيد الصدر 75
كيف نثبت أنّ النصر سنّة؟ 76
آيات النصر في القرآن 77
الآيات العامّة في النصر 77
الآيات المصداقيّة في النصر 79
آيات الدعاء بالنصر 81

7. أسباب النصر(1) الأسباب الماديّة 87

موعظة قرآنية 89

سنّة النصر واختيار الإنسان 90

أسباب النصر ومقدّماته 91

الأسباب الماديّة للنصر 91

8. أسباب النصر (2) الأسباب المعنويّة 103

موعظة قرآنية 105

الإيمان 501

أثر الإيمان في النصر 107

العمل الصالح 108

الصبر والثبات 110

التوكّل 111

9. النصر والمدد الغيبيّ 115

موعظة قرآنية 117

شروط المدد الإلهيّ وأنواعه 118

السكينة 118

قذف الرعب في قلوب الكفّار والأعداء 119

التصرّف بالنفوس 120

تثبيت الأقدام 121

إنزال الملائكة 122

الريح والمطر 123

وصية الأمير عليه السلام حول النصر 124

10. موانع النصر 127

موعظة قرآنية 129

التنازع والفرقة 130

المعصية ومخالفة الأوامر 130

تولّي غير الله 131
انقلاب القيم 131
تسريب الأسرار 132
إلقاء السلاح وترك الحذر 133

11. السنن المرتبطة بالنصر(1) سنّة التداول 137
موعظة قرآنية 139
النصر مشروط بالمبادرة 140
سنّة التداول 041
التداول في اللغة 140
التداول في القرآن الكريم 141
تحليل آية ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ﴾ والعبر المستفادة منها 142
شروط التداول وقيوده 143

12. السنن المرتبطة بالنصر(2) سنّة الاستبدال 147
موعظة قرآنية 149
الاستبدال في اللغة والاصطلاح القرآنيّ 149
فلسفة الاستبدال الإلهيّ 150
الاستبدال في القرآن الكريم 152
تفسير آية ﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾ 351
خاتمة 155

المقدّمة

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على رسول الله محمّد وآله الطاهرين.

وبعد فإنّ النصر من المفاهيم التي كثر الحديث عنها في الفكر الإسلاميّ، وورد ذكرهـا كثيـراً في الكتاب والسـنّة. وثمّة نقاشـات عدّة تدور حول هـذا المفهوم وما يرتبط به وعلاقته بالله وكونه هدفًا وغاية أم أنّه وسـيلة لتحقيق شـيء آخر كائنًا ما كان هذا الشيء، وهل هو نعمة من الله أم هو نتيجة للجهد الإنسانيّ. وبناءً على كونه نعمـةً فما هي القوانين التي يخضع لها ويتحقّـق على أساسها أو تسرّع في تحقيقه أو تؤخّـر بل تحرم الإنسان منـه؟. وأخيرًا ما هي الآفات التي يمكـن أن تصيب النصر وتبطل أثره؟

هـذه الأسئلة وغيرهـا سوف تكون محور الاهتمام في هـذا الكتاب؛ بحثاً وتدقيقاً ومقارنـة واستنتاجاً، وذلك بالاعتماد على آيات القـرآن الكريم الواردة في موضوع النصـر ومـا يرتبط به من معـان ودلالات بشكل رئيس، وبمنهجيـة علمية تجمع بين العمق العلميّ في المضمون والاستدلال، مع المحافظة على سلاسة التعبير وسهولته ودقّتـه، وقد تفضّل سماحة الشيخ محمد حسن زراقط، الذي نوجّه له خالص الشكر والثناء على جهده العلمي المميّز، في كتابة هذا الكتاب وتحقيق أفكاره، والذي نسأل الله تعالى أن يكون مقبولًا بين يديه.

والحمد لله رب العالمين

مركز نون للتأليف والترجمة

1

قاموس النصر
ومفرداته في القرآن

مفاهيم محورية:

- كلمة الغلبة في القرآن الكريم.
- كلمة الفتح في القرآن الكريم.
- كلمة الفوز في القرآن الكريم.
- كلمة الظفر في القرآن الكريم.
- كلمة ظهر في القرآن الكريم.
- كلمة النصر في القرآن الكريم.

موعظة قرآنية

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾[1].

مقدّمة

لا تخفى أهميّة الرجوع إلى القرآن الكريم للبحث عن المصطلحات والمفاهيم الدينيّة التي أسّس لها وطرحها. ولو لم يكن لهذا الرجوع منفعة إلّا فهم كتاب الله لكفى مبرّرًا للعودة إليه والبحث بين مفرداته وكلماته للعثور على الألفاظ التي استخدمها الله عزّ وجلّ للحديث عن النصر وما يرتبط به من مفاهيم. وهذه العودة إلى كتاب الله لها ما يبرّرها غير ما ذُكِر أعلاه، وذلك أنّ النصر من المفاهيم المركزيّة التي ترتبط بمفهوم محوريّ في الفكر الإسلاميّ هو مفهوم الجهاد. ويعدّ النصر في بعض النصوص الإسلامية صنوًا للشهادة وعدلًا لها وذلك كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾[2]، والحسنيان المذكورتان في هذه الآية هما

(1) سورة البقرة، الآية 214.

(2) سورة التوبة، الآية 52.

عاقبتـان ونتيجتـان من نتائج الجهاد والقتال في سبيـل الله، وهما كما في قول عددٍ من المفسّريـن: إمّا الغلبة بنصر الله عزّ وجلّ، وإمّا الشهادة المؤدّية إلى الجنّة[1]. وبحسب تعبيـر مفسّر آخر المقصود من الحسنيين هو: إحدى العاقبتين اللتين كلّ واحدة منهما هـي حسنـى العواقب، وهما: النصرة والشهادة[2]. هذا وقـد فُسّرت الآية بطريقة أخرى فيها يمكن إدراجها في باب التأويل وتطبيق المفهوم على مصاديقه.

الغلبة في القرآن

مـن الكلمات التـي استُخدمت في القـرآن الكريم بكثرة في معنـى يرتبط بمحلّ كلامنا مادّة «غلب» ومشتقّاتها. ويقرب عدد المرّات التي استخدمت فيها هذه الكلمة في هذا المعنى من ثلاثين مرّة. فقد وردت بصيغة الفعل، ووردت بصيغة الصفة لله تعالـى ورسله وحزبه، كما وردت صفة لأشخاص آخريـن. ونكتفي باستعراض موارد من استعمال هذه الكلمة هي الموارد الآتية:

قال الله تعالى:

﴿...كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[3].

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ﴾[4].

﴿وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[5].

﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾[6].

﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾[7].

---

(1) الشيخ الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، ج 5، ص 235. (نسخة مكتبة آل البيت).
(2) الشيخ الطبرسي، تفسير جوامع الجامع، ج 1، ص 206.
(3) سورة البقرة، الآية 249.
(4) سورة آل عمران، الآية 12.
(5) سورة النساء، الآية 74.
(6) سورة الروم، الآيتان 2 و3.
(7) سورة المائدة، الآية 56.

وقبل الدخول في تحليل هذه الكلمة ودلالاتها اللغويّة نشير إلى أنّها لم ترد في وصف الذين لا يرضى الله عن مواقفهم إلّا في سياق يتمنّون فيه الغلبة لأنفسهم فيعبّر الله تعالى عن ذلك بطريقةٍ تشعر بعدم رضاه بذلك أو تحقيق هذه الأمنية لهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾[1]. وللتعبير بـ«**لعلّ**» دلالته الواضحة على التشكيك في تحقّق مثل هذا الأمر لهم.

الغلبة والغلب في اللغة

ومهما يكن من أمر تلك الإشارة التي تستحقّ التوقّف عندها، فقد توقّف علماء اللغة عند هذه المفردة وشرحوها بما يأتي:

يقول صاحب معجم مقاييس اللغة: «**غلب أصل صحيح يدلّ على قوّة وقهر وشدّة...**»[2]. ويقول صاحب كتاب الاشتقاق: «**غلب يغلِب فهو غالبٌ**» ولا يضيف على ذلك شيئًا يوضّح فيه معنى الكلمة[3]. ويقول المصطفوي في خلاصة ما ينتهي إليه بعد نقل كلمات من سبقه من علماء اللغة: «**والتحقيق أنّ الواحد في المادّة هو التفوّق مع القدرة، أو تفوّق في قدرةٍ. وأمّا القهر والاستيلاء والشدّة والغلظة وغيرها، فهي من لوازم الأصل**»[4]. ثمّ يُتابع قائلًا: «**والأغلب من المقام ما يكون متفوّقًا ومتعاليًا وفي قدرة وقوّة في ذاته يعلو على سائر المقامات ويتظاهر عليها: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾**[5] **يُراد تفوّقه على جميع الموجودات وعلى ما يأمره ويريده مع وجود القدرة وهذا أعلى مرتبة التفوّق وأسنى مقام القدرة الروحانيّة**»[6]. ولعلّ في هذه الإشارة الأخيرة من مصطفوي ما يوضح سبب عدم نسبة الغلب والغلبة إلى من يقف في خطّ المواجهة مع الله تعالى.

(1) سورة فصّلت، الآية 26.

(2) أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، مادة: «غلب».

(3) انظر: الاشتقاق، مادّة: «غلب».

(4) حسن مصطفوي، التحقيق في كلمات القرآن، ج 7، ص 302.

(5) سورة يوسف: الآية 21. وتفيد الآية تفوّق الله وتفرّده في أموره فلا يمكن يتقدّم عليه في أمره شيءٌ أو شخصٌ.

(6) التحقيق في كلمات القرآن الكريم. ج7، ص 303.

كلمة الفتح في القرآن الكريم

وكلمة «**فتح**» ومشتقّاتها استُعمِلت أيضًا في القرآن الكريم في سياق ذي صلة بما نحن فيه. ومن الآيات التي وردت فيها هذه الكلمة، كما في قوله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾[1].

﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾[2].

﴿فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[3].

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾[4].

﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[5].

كلمة الفتح في اللغة

الفتح في اللغة بحسب أحمد بن فارس: «أصل صحيح يدلّ على خلاف الإغلاق. يُقال: فتحت الباب وغيره فتحًا، ثمّ يُحمل على هذا سائر ما في هذا البناء فالفتح والفُتاحة: الحكم. والله تعالى الفاتح أي الحاكم. والفتح: الماء يخرج من عين أو غيرها. والفتح: النصر والإظفار. واستفتحت: استنصرت»[6]. ويقول صاحب المصباح المنير: «فتحته فانفتح: فرّجته فانفرج... وفتح الحاكم بين الناس: قضى... وفتح السلطان البلاد: غلب عليها وتملّكها قهرًا»[7]. ويقول الراغب الأصفهاني: «الفتح إزالة

(1) سورة النساء، الآية 141.
(2) سورة المائدة، الآية 52.
(3) سورة الشعراء، الآية 118.
(4) سورة الفتح، الآيتان 1و2.
(5) سورة الفتح، الآية 18.
(6) معجم مقاييس اللغة، مادّة: «فتح».
(7) الفيومي، المصباح المنير، مادّة: «فتح».

الإغـلاق والإشكال. وذلك ضربـان: أحدهما: يدرَك بالبصر، كفتـح القفل. والثاني: يدرَك بالبصيرة كفتح الهمّ. وذلك ضروبٌ: أحدها في الأمور الدنيويّة... والثاني فتح المستغلَق من العلوم. وقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾، قيل عنى فتح مكّة وقيل فتح ما يُستغلق من العلوم...»[1] وأخيرًا يقول المصطفوي مستنتجًا من كلمات علماء اللغة والتأمّـل في آيات القـرآن الكريم: «والتحقيق أنّ الأصل الواحد في المادة هو ما يقابل الإغلاق والسدّ والحجب، وهذا المعنى يختلف باختلاف الموارد والموضوعات، ماديًّا أو معنويًّـا... فالفتح المطلـق، كما في قوله تعالـى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ...﴾ يراد الفتح المطلـق في مسير الرسالة وإجراء وظائف النبوّة وإبلاغ الأحكام الإلهيّـة، برفع الموانع الماديّة والمعنويّـة وكشف المغلقات وإزالة الأسداد، ثمّ التقوية والنصر... وقد يكون النصر من مقدّمات الفتح في مرتبة الإيجاد لا الإبقاء، كما في: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾[2]، و﴿نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾[3]...»[4].

كلمة الفوز في القرآن الكريم

الفـوز وما يُشتقّ من هذه المادّة ممّـا استعمله القرآن الكريم في التعبير عن هذا الميـدان الذي نحن بصدد الحديـث عنه، ومن الآيات التي وردت فيها هذه الكلمة أو أحد اشتقاقاتها:

ففـي سياق الحديث عن بعض المتخلّفين عن الجهاد يقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[5]، ويُستفـاد من هذه الآية أنّ بعض ما يناله المجاهدون في جهادهم هو فوزٌ عظيم، ولو بحسب توصيف هذا المتخلّف وإقرار القرآن إيّاه على هذا التقييم.

(1) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، مادّة: «فتح».
(2) سورة النصر، الآية 1.
(3) سورة الصف، الآية 17.
(4) التحقيق في كلمات القرآن الكريم، ج 9، ص 15–16.
(5) سورة النساء، الآية 73.

وتجدر الإشارة إلى أنّ هذه الآية هي المورد الوحيد الذي استُخدمت فيه هذه الكلمة في هذا المعنى. وأكثر استخدام القرآن لهذه الكلمة هو في سياق الحديث عن الفوز العظيم الذي هو بحسب القرآن الكريم أمور، منها: دخول الجنّة[1]، والنجاة من النار[2]، وطاعة الله ورسوله[3].

كلمة الظفر في القرآن الكريم

لم ترد هذه الكلمة في القرآن الكريم سوى مرّة واحدة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾[4]. وعلى الرغم من قلّة استخدامها في القرآن الكريم إلا أنّ علماء اللغة لم يهملوها، فقد قال الفيومي في تفسيرها: «**ظفِر ظفَرًا من باب تعب، وأصله بالفوز والفلاح، وظفرت بالضالة: إذا وجدتها، والفاعل ظافر...**»[5]. ويقول صاحب المفردات: «**الظُّفر: يُقال في الإنسان وفي غيره، ويعبّر عن السلاح به، تشبيهًا بظفر الطائر؛ إذ هو بمنزلة السلاح. والظَّفَر: الفوز وأصله من ظَفَره أي نشب ظُفره فيه**»[6]. وهذه إشارة ذكيّة من الراغب تكشف عن التفاتة جميلة إلى الربط بين المعنيين. وأمّا مصطفوي فيقول: «الأصل الواحد في المادّة: هو الغلبة في طريق الفوز، فالقيدان لازمان في موارد استعمال المادّة. وبهذا يظهر الفرق بينها وبين موادّ الغلبة والقهر والفوز. وأمّا الظُّفر: فهو مأخوذ من الأصل؛ لأنّه وسيلة الغلبة والفوز، وبهذا السلاح يقهر صاحبه على

(1) وذلك كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ (سورة الحديد، الآية 12).

(2) كما في قوله تعالى: ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ (سورة غافر، الآية 9) بناء على تفسير الوقاية من السيّئات بالنجاة من العذاب يوم القيامة. انظر: السيد محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج 17، ص 307.

(3) وذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (سورة الأحزاب، الآية 71).

(4) سورة الفتح، الآية 24.

(5) المصباح المنير، مادّة: «ظفر».

(6) المفردات في غريب القرآن، مادّة: «ظفر».

عـدوّه وما يقابله. ولا يبعد أن تكون هذه الكلمة في الأصل صفة مشبّهةً كالصُّلب، بمعنى ما من شأنه الاتّصاف بالظَّفر، ثمّ غلب استعماله في الظُّفر»[1].

كلمة ظهر في القرآن الكريم

وردت مشتقّات هذه الكلمة في عدد من آيات القرآن الكريم لا ترتبط كلّها ببحثنا، وما يرتبط بموضوع كلامنا هو بعضها فحسب. ونكتفي بذكر بعض الموارد كأمثلة ونماذج:

قـال تعالـى: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ﴾[2].

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾[3].

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾[4].

وفـي شرح هذه الكلمـة يقول ابن فارس: «ظهر: أصلٌ صحيـحٌ واحد يدلّ على قوّة وبـروز، من ذلك ظهـر الشيء يظهر ظهورًا، فهـو ظاهرٌ، إذا انكشـف وبرز؛ ولذلك سُمِّـي وقت الظهر والظهيرة، وهو أظهر أوقات النهار وأضوؤها... والظهور الغلبة»[5] وبعـد نقله عددًا من كلمـات اللغويّين ينتهي صاحب التحقيق إلـى أنّ «الأصل الواحد فـي هذه المـادّة: هو مطلق بدوّ في قبال البطون، بـأيّ كيفيّة كان... والظهور تختلف خواصّه باختلاف [من أو ما يتّصف به]... فالظهور في دينه تعالى... عبارة عن كون التعبّد والتسليم الخاصّ ظاهرًا بيّنًا لا إبهام فيه... وفي القوى المادّية... يُراد التفوّق بالقهر والغلبة والشدّة، والمظاهرة استمرار تلك القوّة والقدرة...»[6].

(1) التحقيق في كلمات القرآن الكريم، ج 7، ص 196–197.
(2) سورة التوبة، الآية 8.
(3) سورة التوبة، الآية 33.
(4) سورة الفتح، الآية 28.
(5) مهجم مقاييس اللغة، مادّة: «ظهر».
(6) التحقيق في كلمات القرآن، ج 7، ص 217–223.

كلمة النصر في القرآن الكريم

وبعد هذا الاستقصاء للمعجم القرآني حول الموضوع نصل إلى الكلمة الأساس وهي مادّة «**نصر**» التي تستعمل كثيراً للدلالة على موضوع كلامنا في هذا الكتاب. فقد تكرّرت هذه المادّة في القرآن الكريم عشرات المرّات، وفي سياقات مختلفة كالدعاء، والكشف عن المنّ الإلهيّ على المؤمنين وغير ذلك ممّا لا داعي لحصره الآن. ومن النماذج التي وردت فيها هذه الكلمة ما يأتي، قال تعالى:

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾[1].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾[2].

﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾[3].

هذه نماذج من الآيات التي وردت فيها مادّة «**نصر**» بصيغها المتعدّدة، من اسم الفاعل إلى الفعل بصيغتي المعلوم والمجهول. وقد كان لهذه المادّة نصيبها من اهتمام علماء اللغة. يقول ابن فارس: «نصر: أصل صحيح يدلّ على إتيان خير وإيتائه. ونصر الله المسلمين: آتاهم الظفر على عدوّهم. وانتصر: انتقم، وهو منه... والنصر العطاء»[4]. ويقول الفيومي: «نصرته على عدوّه، ونصرته منه نصرًا: أعنته وقوّيته، والفاعل ناصر ونصير، وجمعه أنصار. والنصرة بالضمّ اسم منه. وتناصر القوم: نصر بعضهم بعضاً. وانتصرت من زيد: انتقمت منه. واستنصرته: طلبت نصرته»[5]. ويقول المصطفوي: «الأصل الواحد في المادّة: هو إعانة في قبال مخالف، كما أنّ الإعانة تقوية شيء في نفسه ومن دون نظرٍ

(1) سورة البقرة، الآية 214.
(2) سورة محمد، الآية 7.
(3) سورة آل عمران، الآية 126.
(4) معجم مقاييس اللغة، مادّة: «نصر».
(5) المصباح المنير، مادّة: «نصر».

إلى غيره. وأما مفاهيم... الإعطاء والانتقام والتقوية: إذا لوحظ فيها القيدان المذكوران فتكون من مصاديق الأصل، وإلا فهي من التجوّز بمناسبة مطلق الإعانة بوجهٍ»[1]. ويتابع قائلًا في مقام التمييز بين استعمالات هذه الكلمة بحسب ما يدخل على ما بعدها من حروف الجرّ: «ثمّ إنّ النصرة إذا استُعمل بحرف على فيدلّ على الاستيلاء والغلبة كما في: ﴿وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[2]، وإذا استُعمل بحرف مِن: فيدلّ على الجانب والجهة كما في قوله: ﴿وَنَصَرۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ﴾[3]... وإذا استُعمل مطلقًا وبدون قيدٍ: يدلّ على مطلق النصرة، كما في: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ﴾»[4] [5].

يمكن عدّ ما تقدّم تمهيدًا معجميًّا عن المفردات التي استخدمها الله عزّ وجلّ في القرآن الكريم، للتعبير عن هذا المجال الذي نحن بصدد الحديث عنه. ولمّا كان موضوعنا الأساس هو النصر كان لا بدّ من تخصيصه بحديث منفصل غير ما تقدّم لتسليط مزيد من الضوء. ويعود سبب خصّه هذا المفهوم دون غيره بمزيد من الاهتمام إلى أمور عدّة، هي:

كلمة النصر هي تقريبًا المفردة الوحيدة التي تستخدم في المحاورات المعاصرة للتعبير عن هذا المجال.

هي الكلمة التي تردّدت في القرآن الكريم أكثر من غيرها من الكلمات والمفردات، وذلك أنّها تكرّرت عشرات المرّات الأمر الذي لا نجده في غيرها من المفردات المشابهة.

تنوّع دلالات هذا المفهوم أكثر من غيره من المفاهيم المشابهة، وهو ما سوف يتّضح لاحقًا من المبحث الآتي.

---

(1) التحقيق في كلمات القرآن الكريم، ج 12، ص 155-156.
(2) سورة آل عمران، الآية 147.
(3) سورة الأنبياء، الآية 77.
(4) سورة الأنفال، الآية 74.
(5) م.ن، ص 156.

وقفة تأمّلية

البلاء طريق النصر

قد جرت كلمة الله تعالى على اختبار الناس بأنواع المحن والبلايا ليميز الجيد من الردي ويظهر الصابر وغيره كما قال جل شأنه ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْ ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾[1]...، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة، فإن قلت: حقيقة الاختبار طلب الخبر بالشيء ومعرفته لمن لا يكون عارفاً به والله سبحانه عالم بمضمرات القلوب وخفيّات الغيوب فالمطيع في علمه متميز من العاصي، فما معنى الاختبار في حقّه؟ قلنا: اختباره تعالى ليس إلاّ ليعلم غيره من خلقه طاعة من يطيع وعصيان من يعصي ويتميز ذلك عنده فهو من باب الكناية، لأنّ التميّز من لوازم الاختبار وعوارضه فأطلق الملزوم وأُريد به اللازم كما هو شأن الكناية، أو قلنا: اختباره تعالى استعارة بتشبيه فعله هذا ليثيب المطيع ثواباً جزيلاً ويُعذّب العاصي عذاباً وبيلاً باختبار الإنسان لعبيده ليتميز عنده المطيع والعاصي ليثيب المطيع ويكرمه ويُعذّب العاصي ويُهينه فأطلق على فعله تعالى الاختبار مجازاً.

شرح أصول الكافي، المولى محمد صالح المازندراني، ج6، ص250

(1) سورة البقرة، الآية 214.

قاموس النصر ومفرداته في القرآن
الغلبة
لغة: لها عدّة معان: قوة. قهر. شدّة الواحد في المادّة هو التفوّق مع القدرة، أو تفوّق في قدرةٍ. وأمّا القهر والاستيلاء والشدّة والغلظة وغيرها، فهي من لوازم الأصل.
الاستعمال القرآني: استخدمت هذه المادة في ثلاثين مورداً : كفعل، صفة لله، صفة للمؤمنين...إلخ
الفتح
لغة: للمادة معان عدة: منها: النصر، الإظفار، إزالة الإغلاق والإشكال.
الاستعمال القرآني: استخدم القرآن الكريم هذه المادّة في العديد من الآيات وأغلبها يتّجه نحو النصر والغلبة.
الفوز
الاستعمال القرآني: استخدم القرآن الكريم هذه المادة بما يشير إلى النصر، وكذلك استخدمها بما يشير إلى الفوز يوم القيامة
الظفر
لغة: له عدّة معان منها: الفوز والفلاح، وهو الغلبة في طريق الفوز.
الاستعمال القرآني: استعملها القرآن الكريم في مورد واحد (بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ).
ظهر
لغة: لمادة ظهر استعمالات عدّة، منها: الظهور، الغلبة، القوة والبروز... إلخ.
الاستعمال القرآني: لقد استخدم القرآن الكريم كلمة» ظهر»، بعدّة معان منها ما ليس له علاقة بموضوع النصر، ومنها ما له علاقة بموضوع النصر في ثلاث آيات.
النصر
لغة: لقد تعدّدت معاني مادة نصر في اللغة، منها: إتيان الخير، الظفر، الغلبة، العطاء، الإعانة، التقوية...إلخ.
الاستعمال القرآني: لقد استخدم القرآن الكريم هذه الكلمة بعدّة معان، منها: الشهادة، الدعاء، المنّ الإلهي، النصر، الظفر، الغلبة، العطاء...إلخ.

2

مفهوم النصر في القرآن الكريم

مفاهيم محورية:

- **معاني النصر في القرآن الكريم.**
  - (1) الحماية والدفاع.
  - (2) الانتقام.
  - (3) العون والمساعدة.
  - (4) الغلبة والظفر.
- **المعنى الأساس لكلمة النصر.**
- **حقيقة النصر وبعض مصاديقه.**
- **أهداف الحرب والجهاد.**
  - (1) الهجوم.
  - (2) الدفاع.
- **النصر على المدى البعيد.**

موعظة قرآنية

﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾[1].

مقدّمة

تبيّـن ممّـا تقدّم أنّ النصر مـن المفاهيم الأساسيّة التي نالـت نصيبًا وافرًا من الاهتمـام القرآنيّ. وعلى الرغم مـن تشابه المعاني التي استُخدِمت فيها هذه الكلمة فـي القرآن الكريـم إلا أنّ بينها مستوًى مّا من الاختـلاف والتمايز يستدعي التوقّف عندهـا لأنّ بيـان هذه الاختلافـات تدبّرٌ في القـرآن الكريم من جهـة، وعملٌ بقوله تعالـى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[2]، ولمـا لفهـم هذه الفوارق من أثرٍ في جلاء موضوع بحثنا.

معاني النصر في القرآن الكريم

وأهمّ هذه المعاني التي وردت في القرآن لكلمة نصر ما يأتي:

1 . **الحمايـة والدفـع**: استُخدِمت مادّة نصر في القرآن الكريم في هذا المعنى مرّاتٍ عدة،

(1) سورة الحجّ، الآية 15.

(2) سورة ص، الآية 29.

فـي أكثر من سياقٍ ربّمـا كان أكثرها في سياق تهديد الكافريـن أو العاصين بعدم قدرةٍ أحدٍ على حمايتهم من عذاب الله إذا نزل بهم. وأمثلة ذلك في القرآن كثير، منها:

أ- نفـي الحماية من عـذاب الآخرة: ورد هـذا المعنى في عدد مـن آيات القرآن يخبرنـا الله فيها عن حتميّة عذاب الآخرة لمستحقّيه، وعجز أيّ قدرة أو جهة عن التدخّل للتخفيف من هذا العذاب أو دفعه عمّن يستحقّه، ولا إمكان تبديله بغيـره إن لم يرد الله تعالـى ذلك، وهذا كما في قوله عـزّ وجلّ في وصف يوم القيامـة: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾[1]. ومن ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾[2].

ب- نفـي القـدرة الذاتيّـة على دفع العـذاب: ورد في قصّة النبـيّ نوح عليه السلام أنّ قومـه طلبوا منـه إبعاد بعض المقرّبين مـن المؤمنين به، بحجّـة أنّهم أراذل القـوم[3]، فـردّ عليهم بمطالبتهـم بحمايته من آثار هذا الطـرد ودفع العذاب الإلهيّ عنه إن طرد هـؤلاء المؤمنين المحيطين: ﴿وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[4]. ومعنـى هذه الآية هو نفـي وبيان عجز أيّ قدرة على حمايـة النبـيّ نوحٍ من عذاب الله ودفعه عنه إن هو خالف إرادة الله واستجاب طلب الكفّار الذين كانوا يأنفون من مجالسة فقراء القوم وضعفائهم، وبعبارة أخـرى هو استفهام في معنى النفي[5]. والموقـف النبويّ الحاسم نفسه يتكرّر من النبيّ صالح عليه السلام في الردّ على قومه عندما أعلنوا سأمهم من إصرارهم على دعوته وترغيبه في الميل إلى دينهم[6].

(1) سورة الدخان، الآية 41.
(2) سورة الطور، الآية 46.
(3) انظر: سورة هود، الآية 27.
(4) سورة هود، الآية 30.
(5) للاطلاع على كلام المفسّرين على هذه الآية انظر: السيد محمد حسن الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج 10، ص 208؛ الشيخ الطبرسي، مجمع البيان، ج 5، ص 266.
(6) ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ، فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ (سورة هود: الآية 63).

2 . **الانتقام:** استُخدمت مادّة «**نصر**» في هذا المعنى في آيات عدّة من القرآن الكريم منها قولـه تعالـى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْۚ وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ﴾[1]. وقد وردت هذه الآية في سياق الحديـث عن الشعراء الذين كانوا يهجون النبيّ ﷺ فواجههم المسلمون بالسلاح نفسـه وانتصروا لرسولهـم ولأنفسهم[2]. ومن أمثلة استعمال هـذه المادّة في هذا المعنى أي الانتقام قوله تعالى: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ﴾[3].

3 . **العون والمساعدة:** من المعاني الأساسيّة لمادّة «**نصر**» العون والمساعدة. وقد نصّ عدد من علماء اللغة على هذا المعنى عندما تعرّضوا لهذه الكلمة في معاجمهم. وقد تقدّم بعض ذلك. ونزيد الأمر وضوحًا هنا، فنشير إلى عدد من أقوال اللغويّين، منهم مثـلاً، يقول ابـن منظور: «النصر: إعانة المظلوم؛ نصره علـى عدوّه ينصره ونصره ينصر نصرًا... والاسم النُّصرة... والأنصار أنصار النبيّ ﷺ غلبت عليهم الصفة فجرى مجرى الأسماء... وتناصروا: نصر بعضهم بعضًا»[4].

وتوقّـف بعض علماء اللغة عند قولـه تعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾[5] ويجعلها أحـد الشواهـد على استخدام هذه المادة في هذا المعنـى فيقول: «**قوله: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ﴾ ويعينـه في الدنيـا والآخرة ويغيظه أن يظفر بمطلوبه...**»[6].

وإذا رجعنـا إلى القرآن الكريم لإحصاء المعاني التي تستخدم فيها هذه المادّة نجد أنّ القسم الأكبر من موارد استخدامها هو استخدامها في هذا المعنى، وهاك بعض النماذج التي تؤيّد هذه الدعوى:

---

(1) سورة الشعراء، الآية 227.

(2) انظر: مجمع البيان، ج 7، ص 360.

(3) سورة الشورى، الآية 41.

(4) لسان العرب، ج 5، ص 210، مادّة: «**نصر**». ويشبهه قول أبي بكر الرازي، مختصر الصحاح، ص 239.

(5) سورة الحجّ، الآية 15.

(6) فخر الدين الطريحي، مجمع البحرين، ج 3، ص 494.

قال الله تعالى:

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾[1].

﴿وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾[2].

﴿وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾[3].

﴿جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾[4].

وغير هذه الآيات كثير يكشف عن استخدام هذه الكلمة في هذا المعنى أي معنى المساعدة والعون. وفي إحصاء نتجنّب وصفه بالدقيق تبيّن أنّ هذه الكلمة استُخدمت ما يقرب من مئة وخمسين مرّة في القرآن الكريم ربّما كان أكثر من نصفها دالًّا على هذا المعنى الأخير. وفي عدد كبير من الموارد الباقية هو الاحتمال الأرجح. وقبل الانتقال إلى النقطة اللاحقة لا بأس من الإشارة إلى الفرق بين النصر ومشتقّاته وبين العون. ونستند في هذا التمييز إلى ما قاله أبو هلال العسكري: «الفرق بين النصرة والإعانة: أن النصرة لا تكون إلا على المنازع المغالب والخصم المناوئ المشاغب، والإعانة تكون على ذلك وعلى غيره؛ تقول أعانه على من غالبه ونازعه ونصره عليه وأعانه على فقره إذا أعطاه ما يعينه وأعانه على الأحمال. ولا يقال نصره على ذلك فالإعانة عامة والنصرة خاصة. والفرق بين النصر والمعونة: النصر: يختص بالمعونة على الأعداء. والمعونة: عامة في كل شيء. فكل نصر معونة ولا ينعكس...»[5].

4 . **الغلبة والظفر**: رابع المعاني التي تُستخدم فيها كلمة «**نصر**» ومشتقّاتها التغلّب على العدوّ والظفر عليه. وهذا المعنى الأخير هو المعنى الذي يتبادر إلى الذهن

(1) سورة التوبة، الآية 40.
(2) سورة الصافات، الآية 116.
(3) سورة الحشر، الآية 12.
(4) سورة آل عمران، الآية 81.
(5) أبو هلال العسكري، الفروق اللغويّة، ص 540.

عندمـا تُسمع كلمـة «**نصر**» ومشتقّاتها فـي هذا العصر بين أهـل العربية. وربّما يفهم هذا المعنى من بعض الآيات في القرآن الكريم التي وردت فيها كلمة نصر. ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾[1]، ويكشف تتبّع كلمات المفسّرين عن أنّهم يرون أنّ هذه الكلمة تدلّ على هذا المعنى الأخير. يقول السيد الطباطبائي في شرح الآية المشار إليها أعلاه: «بيان انحصار حقيقة النصر فيه تعالى، وأنّه لو كان بكثرة العدد والقوّة والشوكة كانت الدائرة يومئذ للمشركين بما لهـم مـن الكثرة والقوّة على المسلمين على ما بهم مـن القلّة والضعف»[2]. ويقول مفسّـرٌ آخـر: «ولمّا كان ذلك فهمنا أنّ النصر ليس إلا بيده، وأنّ شيئًا من الإمداد أو غيره لا يوجب النصر بذاته»[3].

المعنى الأساس لكلمة النصر

فـي ختام الحديث عن المعنى اللغوي لكلمة نصر ثمّة تساؤلٌ يستحقّ أن يطرح مع محاولة الجواب عنه وهو أنّه هل يمكن ردّ بعض هذه المعاني إلى بعضها الآخر؟ وهل يصحّ افتراض أنّ المعنى الأصليّ لمادّة «**نصر**» هو الإعانة على العدوّ بالحدّ الأدنى؟

يبـدو من خلال التأمّل في موارد استعمال هـذه الكلمة في القرآن الكريم، بالحدّ الأدنـى، أنّ الأصـل فيهـا هو العـون لتحقيق هدفٍ والوصـول إلى غايةٍ ولـو في حالة المغالبـة والخصام؛ فإذا تحقّقت هذه الغاية وأثمـرت النصرة والمساعدة ثمرتهما قيل عن هذه الحالة الجديدة التي تترتّب عليهما نصرًا بدل أن يُقال غلبة أو ظفرًا أو ما شابههما من الكلمات التي تفيد هذا المعنى.

يميّز بعضـ علماء اللغة بين مصطلحين هما: المصدر واسم المصدر. فيعرّفون الأوّل بأنّـه مـا دلّ على الحدث مجرّدًا عن الزمـان. وتوضيح ذلك أنّ الفعل يدلّ على

(1) سورة الأنفال، الآية 10.

(2) الميزان في تفسير القرآن، ج 9، ص 21؛ وانظر أيضًا: المصدر نفسه، ج 4، ص 9.

(3) البقاعي، نظم الدرر في تفسير الآيات والسور، نقلًا عن برنامج المكتبة الشاملة الإلكتروني.

حصول الحدث في زمنٍ محدّدٍ كالماضي أو الحاضر أو المستقبل. ومثاله في ما نحن فيه: نَصَرَ (ماضٍ)، ينصرُ (حاضر)، انصرْ (مستقبل). هذا بحسب المعنى وأمّا بحسب اللفظ فيشترطون في المصدر أن تتوفّر فيه حروف الفعل ولا يُحذف منها شيءٌ دون التعويض عنه. وأمّا إذا حُذِفت بعض الحروف ودلّت الكلمة على الحديث فتكون اسم مصدرٍ. مثل: توضّأ ووضوء (اسم مصدر). وعلى هذا يتّحد المصدر واسمه في المعنى ويختلفان في عدد الحروف فحسب[1]. هذا ولكن ثمّة من يميّز بين الأمرين بأنّ المصدر يدلّ على الحدث وأمّا اسم المصدر فإنّه يدلّ على نتيجة الحدث والفعل. وفي ما نحن فيه فإنّ الإعانة والمدد يؤدّيان إلى نتيجة هي الفوز، فنفس عمليّة الإعانة تُسمّى نصرًا ونصرةً فهي مصدرٌ. وأما النتيجة التي تفضي إليها هذه الإعانة فهي النصر بما هو نتيجة وأثرٌ ويُسمّى اسم مصدرٍ[2].

حقيقة النصر وبعض مصاديقه

تبيّن ممّا تقدّم أنّ النصر المدد والعون بحسب اللغة ولكن كثُر استعمال هذه الكلمة في النتيجة الإيجابيّة التي يفضي إليها هذا العون. وليكن واضحًا من الآن فصاعدًا أنّ هذا التمييز ليس مهمًّا إلى درجة كبيرة في الإطار الذي نتحدّث فيه، وذلك لأنّ المدد الإلهيّ والعون إذا كان من الله تعالى، بشكلٍ غيبيّ أو بواسطة ماديّة طبيعيّة، فإنّه سوف يحقّق أهدافه عادةً إذا لم يضيّع الإنسان هذا العون ويفرّط فيه.

وثمّة سؤال منطقيٌّ ينبغي أن يُطرح في مثل هذه الأبحاث، وهو: متى يتحقّق النصر؟ وليس مركز السؤال هو شروط النصر ومقدّماته؛ بل السؤال هو ما هي الوضعيّة التي يجب أن تتحقّق حتّى يُقال عن الجهة التي تواجه وتجاهد إنّها انتصرت؟

(1) انظر مثلًا: ابن عقيل، شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، ج 2، ص 98.

(2) هذا وقد يخالف كثير من علماء النحو واللغة العربية في هذا الأمر. وزيادة التدقيق في هذا المبحث تحتاج إلى بحثٍ تخصّصيّ ليس هذا محلّه. للمزيد انظر: عباس حسن، النحو الوافي، ط 4، دار المعارف، مصر، لا تاريخ، ج 3، ص 208؛ مصطفى جمال الدين، البحث النحوي عند الأصوليّين، ط 2، دار الهجرة، قم، 1405 هـ.ق.، ص 98-114.

أهداف الحرب والجهاد

لـكلّ حـربٍ أو جهد وجهاد هدفٌ وغايـة. وإذا كنّا نتحدّث عـن إنسان، أو جماعة إنسانيّـة حكيمة وعاقلة فلا بدّ من أن تكون أفعالها وحركاتها وسكناتها هادفةً بعيدة عن العبثيّة واللغو. وبالتالي يمكن اعتماد الهدف والغاية الدافعة إلى الحراك كمعيارٍ للتمييـز بين النصر والهزيمة. وتتنـوّع أهداف الجهاد في الإسـلام بحسب الدوافع التـي تدفـع إلى امتشـاق السيف والسير فـي سبيل تحقيـق الغاية التـي ينتهي إليها القتـال. وربّما يمكن استقصـاء أهمّ أنواع الجهاد بحسـب الفكر الإسلامي وبحسب التجارب التي مرّت في تاريخ الأمة بدءًا من رسول الله محمّد ﷺ مرورًا بالنهضات والحـركات الصالحة التي خاضها القـادة المعصومون عليهم السلام من بعد انتهاءً ببعض التجارب التي عُقِد فيها اللواء لقادة مصلحين مرّوا في تاريخ الأمّة القديم أو الحديث وما بينهما. وأهمّ هذه الأنواع ما يأتي:

1. الهجوم:

خضع مفهـوم الجهاد الابتدائيّ لكثير من النقاشـات الفقهيّة اللاحقة وأخضِعت بعض حروب النبـيّ ﷺ لنقاش طويل لجهة تصنيفها في دائرة الجهاد الابتدائيّ أو الدفاعـيّ. وأيًّا يكن الموقف من هذا المفهوم وأيًّا يكـن التحليل الذي يبتنّاه الباحث لمـا خاضه رسـول الرحمة ﷺ فإنّ له محلًّا آخر غير ما نحـن فيه الآن. وما يعنينا فـي بحثنا هذا هو أنّ النصر في الجهـاد الابتدائيّ يُقاس بمدى تحقّق الأهداف التي ابتغاها وليّ الأمر من هذه المعركة أو تلك. والأهداف المتصوّرة كثيرةٌ لعلّ أهمّها: دفع خطـرٍ محدقٍ وهو ما يُعـرف بالحروب الاستباقيّة، وفتح الباب في وجه الدعوة، ورفع الظلـم عن شعوب ترزح تحت ظلـمِ حاكمٍ متعسّف. فإذا تحقّقت هذه الأهداف تجلّى النصـر في نهاية المعركة وإلا تكون الهزيمة هي الغاية التي انتهى إليها القتال. وإذا عدنـا إلى تاريخ الأمّة الإسلاميّة نجد أنّ عددًا مـن المعارك التي خاضها المسلمون

انتهى بالنصر الذي أسّس لانتصارات لاحقةٍ فتحت الأبواب على مصاريعها في وجه الدعوة الإسلاميّة. وربّما تكون معركة بدرٍ هي النموذج الأوضح لمثل هذا النوع من المعارك، بناء على تصنيف معركة بدر في دائرة الجهاد الابتدائيّ.

2. الدفاع:

عندما يحيط بالإسلام أو المسلمين خطرٌ داهمٌ لا بدّ لهم من دفعه، مهما بلغ حجم التضحيات. وفي مثل هذه الحالة يتحقّق النصر عندما تستطيع الأمّة إعاقته عن تحقيق أهدافه. وقد عرف تاريخ الإسلام الأوّل مثل هذا النوع من النصر في معركة الخندق عندما حاصر الأحزاب المدينة وأرادوا اقتحامها لإلحاق الهزيمة بالإسلام والمسلمين في دولتهم الفتيّة آنذاك. ويصوّر القرآن الكريم حالة المسلمين بعد حصارهم على يد الأحزاب التي تكتّلت وحشدت قواها من كلّ حدب وصوب للقضاء على الإسلام، فيقول عزّ وجل، كاشفًا عن حالة المسلمين والرعب الذي أصاب الكثيرين منهم: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا﴾[1]. هذا ولكنّ بطولة أمير المؤمنين عليه السلام وغيره من المجاهدين، واقتراحات سلمان الفارسيّ، والمدد الإلهيّ: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَآ﴾[2]. كلّ ذلك قلب المعادلات رأسًا على عقب وحوّل نتيجة المعركة لصالح المسلمين. وفي مثل هذه الحالة وعلى الرغم من أنّ المسلمين ولو على المدى المنظور لم يكسبوا شيئًا سوى قدرتهم على الصمود في وجه العدوّ ومنعه من تحقيق أهدافه، فإنّهم انتصروا دون شكّ. ومثل هذا الكلام يُقال في كلّ المعارك التي خاضتها الأمّة الإسلاميّة في مواجهة العدوّ، ومن أبرزها مواجهة المقاومة الإسلاميّة الكيان الغاصب، وقدرتها على منعه من تحقيق أهدافه، وإرغامه على

(1) سورة الأحزاب، الآية 10.
(2) سورة الأحزاب، الآية 9.

الفرار السريع من الأرض التي احتلّها قبل أن يستقرّ فيها.

النصر على المدى البعيد

من المعلوم أنّ الإسلام ليس دين جغرافيا، فالأرض لا تعني للإسلام إلا من حيث هي محلٌّ لإقامة العدل والعيش بحريّة وكرامة، وبما هي مكان يسمح للمرء أن يعيش فيها بطريقة تنسجم مع منظومة القيم الإلهيّة التي يريدها الله أن تكون منهاجًا للحياة. ومن هنا نجد أنّه عزّ وجلّ لا يقبل عذر من يعتذر بالضغوط التي تؤدّي إلى الاستضعاف: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾[1]. وبناء على هذه النظرة إلى الأرض والحياة، يكون النصر ولو بعد حينٍ، وعلى المدى البعيد، وذلك عندما يقدر العدوّ على تحقيق بعض أهدافه القريبة أو الماديّة؛ ولكنّه يعجز عن تحقيق الأهداف البعيدة أو المعنويّة. وفي مثل هذه الحالة يكون النصر من نصيب المواجه ولو انهزم على المدى القريب. وأفضل الأمثلة وأوضحها نهضة الإمام الحسين عليه السلام؛ إذ ركز يزيد بين السلّة والذلّة، فأبى عليه السلام الخضوع وأعلن موقفه الخالد: «**هيهات منّا الذلّة**» فاستُشهد ولكنّه بقي حيًّا منارة للأحرار ومشعلًا على مدى التاريخ، وعجز يزيد عن إذلاله، وحقّق هدفه وهو الإصلاح في أمّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. ومن هنا نجده عليه السلام يُعبّر عن هذا النصر بعبارة بالغة وبليغة حيث يقول: «**من لحق بي استُشهد، ومن تخلّف عنّي لم يبلغ الفتح**»[2]. ويمكن تفسير هذه العبارة الشريفة بأكثر من معنى أحدها: أنّ الفتح (النصر) سيكون من نصيبنا حتى لو استشهدنا ولن ينال هذا الشرف من تخلّف عنّا.

(1) سورة النساء، الآية 97.

(2) محمد بن جرير الطبري، دلائل الإمامة، ص 188.

وقفة تأمّلية

العزم على المواجهة

بعد انتهاء معركة «أحد» عاد المشركون المنتصرون إلى مكة بسرعة، ولكنّهم بدا لهم في أثناء الطريق أن لا يتركوا هذا الانتصار دون أن يكملوه ويجعلوه ساحقاً، أليس من الأحسن أن يعودوا إلى المدينة، وينهبوها ويُلحقوا بالمسلمين مزيداً من الضربات القاضية وأن يقتلوا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم إذا كان لا يزال حيّاً ليتخلّصوا من الإسلام والمسلمين ويطمئن بالهم من ناحيتهم بالمرة. لهذا صدر قرار بالعودة إلى المدينة، ولا ريب أنّه كان أخطر مراحل معركة «أحد» بالنظر إلى ما كان قد لحق بالمسلمين من القتل والجراحة والخسائر، الذي كان قد سلب منهم كل طاقة للدخول في معركة جديدة أو لاستئناف القتال، فيما كان العدوّ في ذروة القوّة والروحية العسكرية التي كانت تُمكّن العدو من تحقيق انتصارات جديدة، وإحراز النتيجة لصالحه، فنهاية هذه العودة ونتيجتها كانت معروفة سلفاً.

وقد بلغ خبر العودة هذه إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ولولا شهامته البالغة، وقدرته المكتسبة من الوحي على الأخذ بزمام المبادرة لانتهى تاريخ الإسلام وحياته عند تلك النقطة. في هذه المرحلة الحسّاسة بالذّات نزلت الآيات الحاضرة: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1] إلى قوله: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾[2] لتقوّي روحية المسلمين وتُصعّد من معنوياتهم، وفي أعقاب ذلك صدر أمر من النبي إلى المسلمين بالتهيّؤ لمقابلة المشركين، فاستعدّ جميع المسلمين حتى المجروحين (ومنهم الإمام علي عليه السلام الذي كان يحمل في جسمه أكثر من ستين جراحة) لمقابلة المشركين، وخرجوا بأجمعهم من المدينة لذلك. فبلغ هذا

(1) سورة آل عمران، الآية 123.
(2) سورة آل عمران، الآية 126.

الخبر مسامع زعماء قريش فأرعبتهم هذه المعنوية العالية التي يتمتّع بها المسلمون وظنّوا أنّ عناصر جديدة التحقت بالمسلمين، وأنّ هذا يمكن أن يُغيّر نتائج المواجهة الجديدة لصالح المسلمين، ولذلك فكّروا في العدول عن قرارهم بمهاجمة المدينة، حفاظـاً على قواهم، وهكذا قفلوا راجعين إلى مكة بسرعة، وانتهت القضية عند هذا الحد.

الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل،
آية الله االعظمى الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، ج2، ص677.

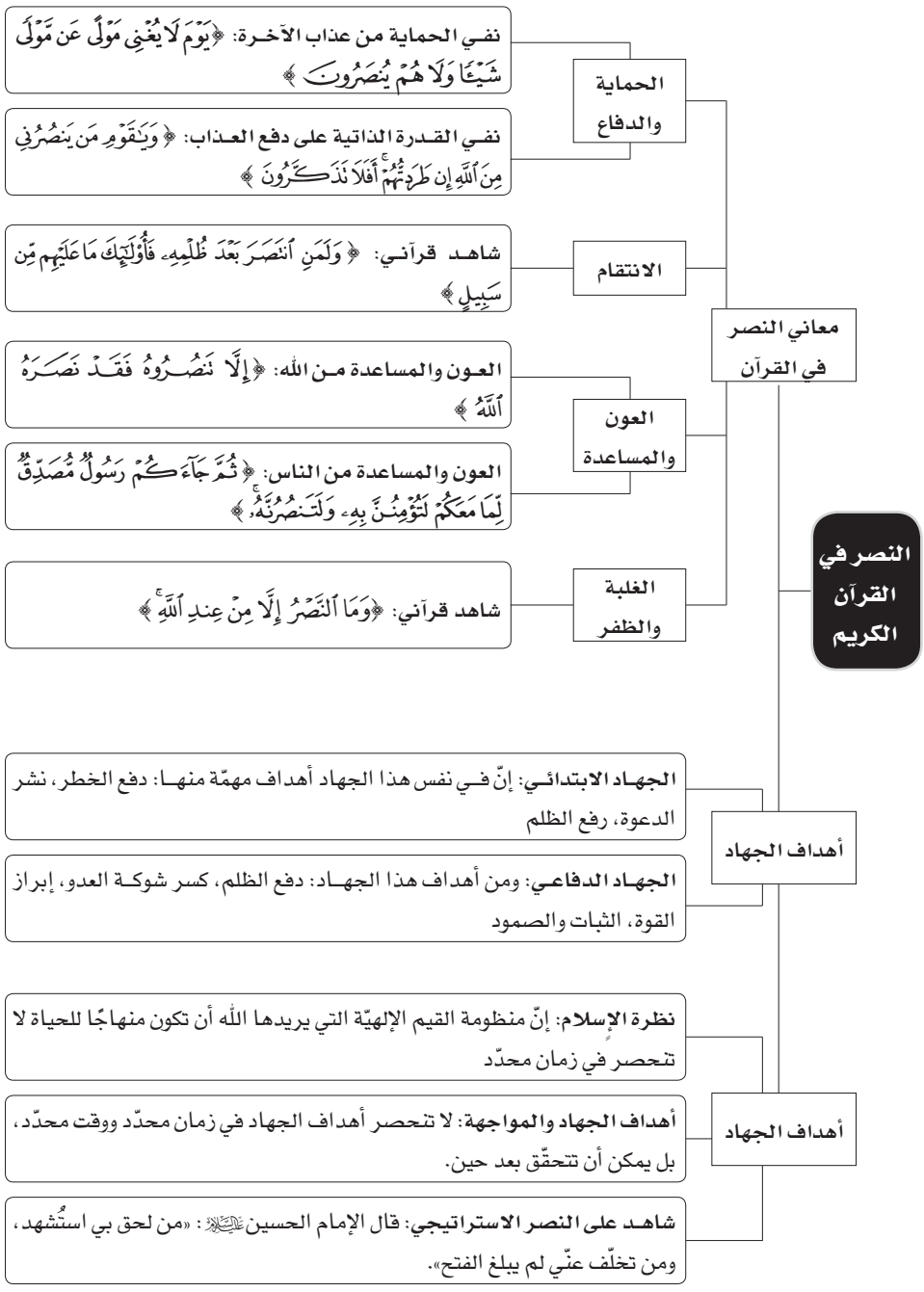
النصر في القرآن الكريم
معاني النصر في القرآن
الحماية والدفاع
نفي الحماية من عذاب الآخرة: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾
نفي القدرة الذاتية على دفع العذاب: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾
الانتقام
شاهد قرآني: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾
العون والمساعدة
العون والمساعدة من الله: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾
العون والمساعدة من الناس: ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ﴾
الغلبة والظفر
شاهد قرآني: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ﴾
أهداف الجهاد
الجهاد الابتدائي: إنّ في نفس هذا الجهاد أهداف مهمّة منها: دفع الخطر، نشر الدعوة، رفع الظلم
الجهاد الدفاعي: ومن أهداف هذا الجهاد: دفع الظلم، كسر شوكة العدو، إبراز القوة، الثبات والصمود
أهداف الجهاد
نظرة الإسلام: إنّ منظومة القيم الإلهيّة التي يريدها الله أن تكون منهاجًا للحياة لا تنحصر في زمان محدّد
أهداف الجهاد والمواجهة: لا تنحصر أهداف الجهاد في زمان محدّد ووقت محدّد، بل يمكن أن تتحقّق بعد حين.
شاهد على النصر الاستراتيجي: قال الإمام الحسين عليه السلام: «من لحق بي استُشهد، ومن تخلّف عنّي لم يبلغ الفتح».

3

موقع النصر في حسابات الجهاد

مفاهيم محورية:

- معنى إحدى الحسنيين في القرآن.
- معان أخرى للآية.
- موقع النصر في الجهاد.
- موقع النصر في الدفاع.
- شبهة أن الإسلام دين حرب.

موعظة قرآنية

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾[1].

مقدّمة

أوضحنا فيما تقدّم مفهوم النصر وأنواعه والحالات التي يمكن لأحد طرفي المعركة أن يدّعي فوزه وقبضه على النصر. وهنا سؤال ينبغي أن يُطرح في سياق الحديث عن النصر وهو: ما موقع النصر في حسابات التفكير في خوض المعركة؟ وهل يجب أن يكون النصر مضمونًا حتّى يتقلّد المسلم أو الأمّة الإسلامية السيف لمواجهة العدوّ أم لا يُشترط ذلك؟

في الجواب عن هذا السؤال ربّما يُفهم ممّا تقدّم أنّ النصر ليس شرطًا واجبًا في خوض معركة الدفاع. فالدفاع حربٌ مفروضة يجب على الأمّة خوضها من حيث المبدأ، ويستطيع قائد المسلمين التفكير في الآليّات والسبل التي تساعده على خوض هذه الحرب لضمان النصر فيها، أو التقليل من الخسائر بالحدّ الأدنى. ولمزيد من وضوح الفكرة وطلبًا لتوثيقها نوزّع البحث على حالات الجهاد الآنفة الذكر لنرى موقع النصر منها. ونبدأ أوّلًا بإشارة أوليّة نقارن ونحدّد فيها النظرة الإسلامية إلى النصر.

---

(1) سورة التوبة: الآية 52.

معنى إحدى الحسنيين في القرآن

يقول الله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾[1].

وتكشف هذه الآية عن موقع النصر في حسابات أرباح الجهاد وخسائره، بدرجة عالية. ويكاد يتّفق المفسرون على أنّ المراد من الحسنيين في الآية هو إحدى النتيجتين اللتين يمكن أن تنتهي إليهما أيّ معركة يخوضها المسلمون مع عدوّهم. فإمّا أن تنتهي هذه المعركة بالنصر والغلبة، وإما أن تنتهي بالشهادة والفوز بلقاء الله.

معان أخرى للآية

ويستفاد من هذه الآية مجموعة معانٍ ذات صلة بما نحن فيه منها:

1 . اختلاف المؤمنين عن غيرهم في النظرة إلى الأمور، فبينما يرى المنافق أو الكافر أنّ الفوز ينحصر في الكسب الدنيويّ والسيطرة على العباد والبلاد يرى المؤمن أنّ المهمّ هو أداء الواجب والخروج عن عهدة التكليف. فسواء عنده النصر والهزيمة عندما يكون كلٌّ منهما في طاعة الله. وهذا يذكّرنا بقول أمير المؤمنين عليّ عليه السلام في خطبة المتّقين: «**نُزِّلَتْ أَنْفُسُهُمْ مِنْهُمْ فِي الْبَلَاءِ كَالَّتِي نُزِّلَتْ فِي الرَّخَاءِ**»[2]. كما يذكّر بالقول المنسوب إلى أكثر من شخص، منهم عمّار بن ياسر عندما دنت منه المنيّة، فطلب شيئًا من الشراب فأُتي به فتذكّر وعد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم إيّاه بأن آخر نصيبه من الدنيا كأس من اللبن، ثُمَّ قَالَ: «**وَاللَّهِ لَوْ هَزَمُونَا حَتَّى يُبْلِغُوا بِنَا سَعَفَاتِ هَجَرَ لَعَلِمْنَا أَنَّا عَلَى الحَقِّ، وَأَنَّهُمْ عَلَى البَاطِلِ**»[3].

2 . اعتقاد المؤمنين بخضوع الكون وما فيه لإرادة الله تعالى، وأنّه لا يريد لأهل

(1) سورة التوبة: الآية 52.

(2) الإمام عليّ عليه السلام، نهج البلاغة، خطبة المتّقين.

(3) الشيخ المفيد، الاختصاص، ط 2، دار المفيد للطباعة والنشر، بيروت، 1993م، ص 14.

الإيمان إلا الخير والأحسن وليس الحسن فحسب. وبالتالي ما دامت الأمور تجري في سبيل الله فهي الخيار الأحسن كائنًا ما كان هذا الخيار. ولا يهمس المؤمن بالاعتراض على إرادة الله ومشيئته، بل يستعذب أمرّ الخيارات ويراها حلوة ما دامت خاضعةً لإرادة الله عزّ وجلّ. وما أقرب القولين المشهورين اللذين يُنسب أحدهما إلى الإمام الحسين عليه السلام عندما استشهد ابنه الرضيع بين يديه فقال: «**هوّن ما نزل بي أنّه بعين الله**»، والآخر المنسوب إلى السيدة زينب عليها السلام عندما هتفت في وجه ابن زياد قائلةً: «**ما رأيت إلا جميلاً، هؤلاء قوم كتب الله عليهم القتل، فبرزوا إلى مضاجعهم...**». نعم القتل في سبيل الله في عين زينب جميل يشبه لجوء النعسان إلى مضجعه. والشهادة في سبيل الله في مقاييس التقييم الإلهيّ إحدى الحسنيين كالنصر على حدٍّ سواء.

3 . الدرس الثالث الذي يُستفاد من الآية هو أنّ على المؤمن أن لا يحسب أنّ الدنيا يجب أن تبقى دائمًا طوع يديه ورهن إشارته ينال منها ما يحبّ ولا ينتقل فيها إلا من نصر دنيويّ إلى نصر. بل إنّ على المؤمن أن يتوقّع الصعود والهبوط في حسابات الدنيا، والمقياس الأهمّ في نظره هو عاقبة الأمور ونهاية المطاف، ولو على المدى البعيد، فالنصر الذي قد يناله المنافق في هذه الدنيا مرّ العاقبة، والشهادة التي ينالها المؤمن هي إحدى الحسنيين، عندما يؤخذ المشهد كلّه على هذا الأساس ولو اقتضى الأمر توسيع النظرة إلى عمر البشريّة كلّها. فربّ دمٍ يراق يتحوّل إلى نصر يروي دوحة الأهداف الإلهيّة ولو بعد حينٍ. ومن هنا ورد عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام في تفسير هذه الآية أنّه قال: «**إما موت في طاعة اللّه وإدراك ظهور إمام...**»[1] .

وفي هذه الآية دلالات أخرى يطول بنا المقام لو استعرضناها جميعًا. وعلى أيّ حال

(1) الكليني، الكافي، ج 8، ص 286، حديث 431.

يمكـن الخروج من هذه الآيــة بنتيجة هي: أنّ النصر ليس هو الشــرط الأساس والأول والأخير في خوض المعارك، وخاصّة عندما يكون الحديث عن النصر الآنيّ الدنيويّ.

موقع النصر في القتال والمواجهة المسلّحة

يميّز الفقهاء بين مفهومين للقتال في سبيل الله، أحدهما الجهاد والآخر الدفاع. ويختلف أحد هذين المفهومين عن الآخر في المفهوم كما في بعض الأحكام. وهدفنا الأساسـي هنــا هو البحــث عن موقع النصر فــي حسابات الإقدام علــى حمل السلاح ومواجهة العدوّ، ولكن لا بأس من بيان المفهومين لنبيّن موقع النصر من كلٍّ منهما.

موقع النصر في الجهاد

وأمّــا الجهاد فهــو مصطلح يقصد به عند بعض الفقهــاء الشروع في القتال، من دون أن يكـون ذلك بالضــرورة ردًّا على هجــوم العدوّ على بــلاد المسلمين وتعرّضه لقتالهم. ويبدو من كلام بعض الفقهاء أنّ هذا النوع من الجهاد هو المقصود عندما يُبحــث عن الجهاد في الكتــب الفقهيّة. وبالرجوع إلى كتب الفقــه الإسلاميّ نجد أنّ فقهــاء المسلميــن يختلفون فيما بينهم فــي اشتراط إحراز النصر قبــل الشروع في القتــال. فمنهم من يرى أنّ إحراز النصر ليس ضروريًّا بل يمكن البدء بالقتال مهما اختلفــت موازين القوى بيــن المسلمين وأعدائهم. ومن هــؤلاء الشيخ الطوسي الذي يقــول: «**وإذا كان في المسلمين قلّة وضعفٌ وفي المشركين كثرةٌ وقوّة، فالأولى أن يؤخّـر الجهاد ويتأنّى حتّـى يحصل للمسلمين قوّة. فإذا اشتـدّت شوكة المسلمين وعلم شوكتهم لا يجوز أن يؤخّر القتال...**»[1] وتفيد هذه العبارة من الشيخ الطوسي أنّ الحــرب ليســت هوايةً ومغامــرة؛ بل يجب أن تُخاض من أجل أهــداف نبيلة، فإذا كانــت النصر غير محرز فلا ينبغي لقائد المسلمين أن يغامر بجنده وأمّته ويدخلهم في حربٍ لا فائدة تُرجى منها.

(1) الشيخ محمد بن الحسن الطوسي، المبسوط، ج 2، ص 2.

موقع النصر في الدفاع

الدفاع في الفقه الإسلاميّ هو: القتال الذي يحصل كردٍّ فعلٍ على هجوم يصدر عن العدوّ على المسلمين أو على بلادهم. ويتنازل الفقهاء في هذا الصنف من الجهاد عن كثيـر من الشروط التي يذكرونها في الصنف السابق. مثلًا يشترط عدد من الفقهاء حضـور الإمام وإذنه في الصنف السابق؛ ولكنّهم في هذا الصنف يتنازلون عن عدد من هذه الشروط. يقول الشيخ الطوسي في هذا المجال: «والجهاد مع أئمّة الجور... خطأٌ يستحقّ فاعله به الإثم وإن أصاب لم يؤجر عليه، وإن أصيب كان مأثومًا، اللهم إلا أن يدهـم المسلميـن أمرٌ من قبـل العدوّ يُخاف منه على بيضـة الإسلام ويُخشى بواره، أو يُخاف على قوم منهم، وجب حينئذٍ أيضًا جهادهم ودفاعهم غير أنّه يقصد المجاهـد والحال مـا وصفناه الدفاع عن نفسه وعن حـوزة الإسلام وعن المؤمنين، ولا يقصـد الجهاد مع الإمام الجائر...»[1]، وتظهر هـذه العبارة المنقولة عن الشيخ الطوسي أنّه لا يشترط الوثوق بالنصر في خوض المعارك الدفاعيّة.

شبهة أن الإسلام دين حرب

وفي ختام هذا البحث تجدر الإشارة إلى أمر مهمٍّ وهو أنّ المستشرقين يعترضون علـى الإسلام بأنّه دين حربٍ وقتال، وذلك بالاستناد إلـى مفهوم الجهاد الابتدائيّ. وفـي الـردّ على هـذه الشبهة نشير إلـى ملاحظات سريعـة ونترك التفصيـل تجنّبًا للتطويل في غير محلّه.

أ- إن قسمًا كبيرًا من المعارك التي خاضها النبيّ ﷺ هي حروب دفاعيّة.

ب- الحروب التي ظاهرها أنّها ابتدائيّة هي في واقعها من أجل الدفاع عن حقوق الشعـوب التي كان يمنع فيهـا الناس من الاطلاع على الإسـلام، وبالتالي هي معارك تهدف إلى فتح النوافذ على الإسلام وليس إلى فتح البلدان والأراضي.

(1) الشيخ محمد بن الحسن الطوسي، النهاية ونكتها، مع تعليقات العلامة الحليّ، ج 2، ص 3.

ج- إنّ العلاقات الدولية بين الدول والشعوب تغيّرت في هذا العصر وتبدّلت وبالتالي فإنّ عددًا من الأحكام لا يطبق في هذا العصر بالطريقة التي كان يطبّق فيها.

د- إن مفهوم المقاومة في حدّ نفسه يحمل في داخله مفهوم الدفاع، فهذا المفهوم يتضمّن من حيث المعنى معنيين بالحدّ الأدنى: المقاومة لصدّ العدوان، والمقاومة لاستعادة الأرض والتحرير.

وقفة تأمّلية

إذا أراد الإنسان أن يصل إلى الحقّ، وإذا أراد أن يُطبّق الإسلام الحقّ في بلدٍ ما، فيجب أن يصبر، هكذا كان يصبر أولياء الله سلام الله عليهم في كل المراحل والمصائب والمشاكل. لقد واجه رسول الله كثيراً من المشاكل خلال زمان وجوده الشريف في مكة والمدينة ومن جميع الجهات، فقد كانت المحاصرة الاقتصادية وكانت الهجمات العسكرية التي لم نر نحن مثلها...

إنّكم على علم بأنّ تاريخ الإسلام مشحون بهذه المجاهدات والتضحيات والقتل على أيدي الفجّار، حتى إنّ أئمّتنا عليهم السلام قد ابتلوا بهذه الأمور، ولكن يجب الصبر والتلبُّس بالمناعة والاستقامة فإنّ الله مع الصابرين، وقد تغلّبنا على هذه القوّة الشيطانية الخارقة (الشاه) التي كانت كل القوى تقف وراءها، وليس هذا إلا لأنّ شعبنا كان متّحداً صبوراً وكان يصبر على المشاكل ويحلّها بالصبر وبالاتكال على الله تبارك وتعالى.

الإمام الخميني قدس سره، الاستقامة والثبات، ص121.

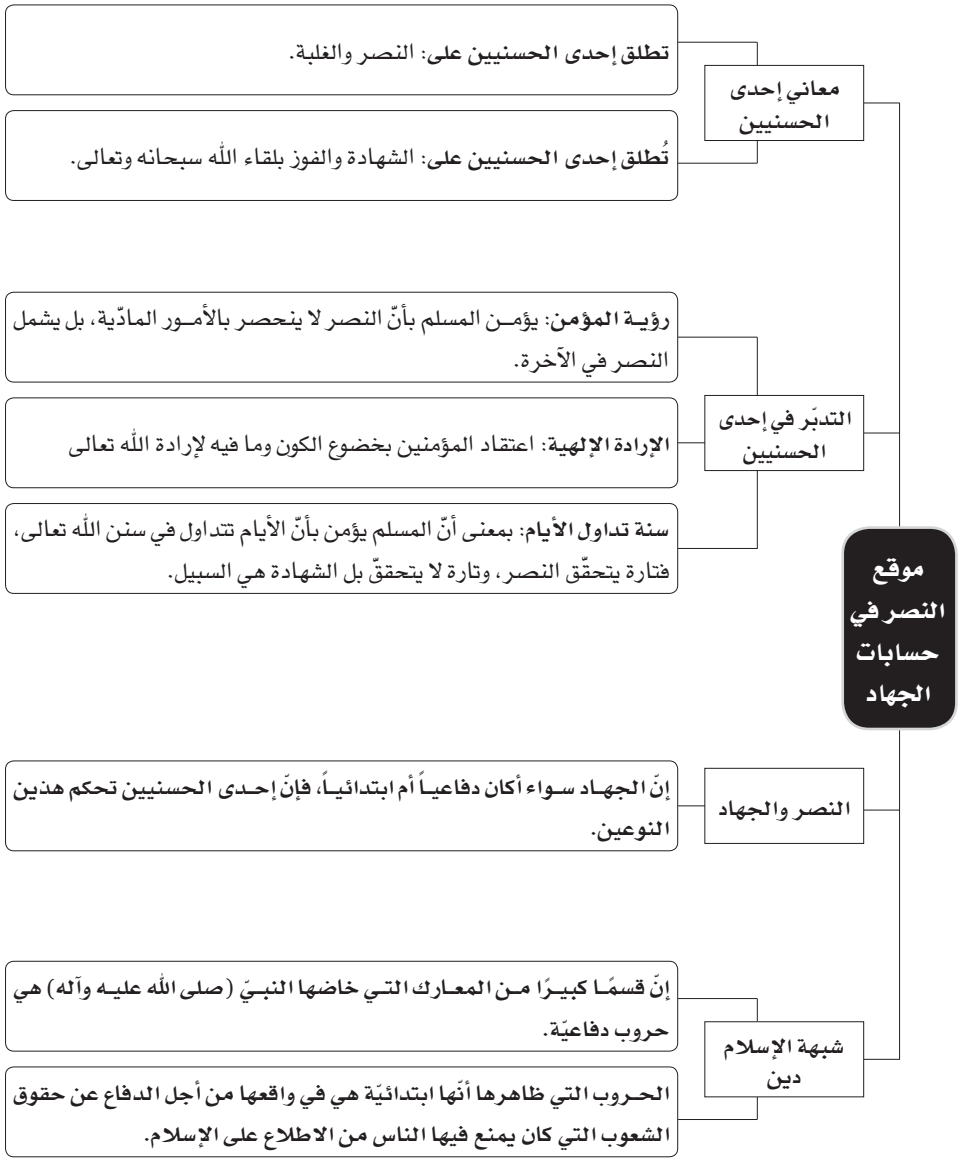
موقع النصر في حسابات الجهاد
معاني إحدى الحسنيين
تطلق إحدى الحسنيين على: النصر والغلبة.
تُطلق إحدى الحسنيين على: الشهادة والفوز بلقاء الله سبحانه وتعالى.
التدبّر في إحدى الحسنيين
رؤية المؤمن: يؤمن المسلم بأنّ النصر لا ينحصر بالأمور المادّية، بل يشمل النصر في الآخرة.
الإرادة الإلهية: اعتقاد المؤمنين بخضوع الكون وما فيه لإرادة الله تعالى
سنة تداول الأيام: بمعنى أنّ المسلم يؤمن بأنّ الأيام تتداول في سنن الله تعالى، فتارة يتحقّق النصر، وتارة لا يتحقّق بل الشهادة هي السبيل.
النصر والجهاد
إنّ الجهاد سواء أكان دفاعياً أم ابتدائياً، فإنّ إحدى الحسنيين تحكم هذين النوعين.
شبهة الإسلام دين
إنّ قسمًا كبيرًا من المعارك التي خاضها النبيّ (صلى الله عليه وآله) هي حروب دفاعيّة.
الحروب التي ظاهرها أنّها ابتدائيّة هي في واقعها من أجل الدفاع عن حقوق الشعوب التي كان يمنع فيها الناس من الاطلاع على الإسلام.

4

فلسفة نسبة النصر إلى اللّه

مفاهيم محورية:

- **نسبة بعض النعم إلى الله تعالى.**

(1) الرزق. (2) العلم. (3) النعم كلّها.

- **نسبة النصر إلى الله تعالى.**
- **الدعاء بالنصر وطلبه من الله.**
- **التوحيد الأفعالي ونسبة النصر إلى الله.**
- **إلهيّة النصر بإلهيّة قيمته.**

موعظة قرآنية

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ لَكُمۡ وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦۚ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾[1].

مقدّمة

من الأسئلة التي تواجه المسلمين في حروبهم التي يخوضونها، هو أنّهم ينسبون النصر الذي ينالونه إلى الله تعالى. وقد طُرح هذا النقاش بحدّة بعد حرب عام 2006 التي خاضتها المقاومة الإسلاميّة في وجه الكيان الإسرائيليّ الغاصب. وكثُرت التساؤلات والانتقادات عندما وُصف النصر بأنّه نصرٌ إلهيٌّ. وبكلمة عامّة ينبغي القول بوضوح إنّ العقيدة الإسلامية تقتضي ليس نسبة النصر وحده إلى الله بل نسبة كل ما في الوجود الإمكانيّ إليه تعالى. فالرزق والنصر والعلم وغير ذلك من الأمور هي بيد الله تعالى يؤتيها من يشاء من عباده. والأدلّة التي تدعو إلى الإيمان بهذا الأمر كثيرةٌ من القرآن وغيره. وسوف نستعرض فيما يأتي بعض هذه الأمور.

---

(1) سورة آل عمران، الآية 126؛ وانظر: سورة الأنفال: الآية 10.

نسبة بعض النعم إلى الله في القرآن

1. الرزق:

الآيات التي تتحدّث عن الرزق في القرآن كثيرة لا مجال لاستعراضها جميعًا، ونكتفي بذكر مجموعة منها، هي:

- يقول تعالى مخاطبًا بني إسرائيل: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[1].
- ويقول عزّ وجلّ مخاطبًا المؤمنين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[2].
- ويقول تعالى مقرّرًا أنّه يرزق من يشاء دون أن يقدر أحدٌ على وضع حدٍّ لرزقه: ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[3].
- ويقول تعالى في آية كريمة يدعو فيها إلى طلب الرزق منه تعالى وعدم البحث عنه عند غيره: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾[4].

2. العلم:

والعلم وهو من أعظم النعم الإلهيّة على الإنسان نسبه الله إلى نفسه في عددٍ من آيات القرآن الكريم، منها:

- قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي

(1) سورة البقرة، الآية 57.
(2) سورة البقرة، الآية 172.
(3) سورة البقرة، الآية 212.
(4) سورة فاطر، الآية 3.

بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[1].

- ويخبرنا الله تعالى عن بعض العباد الذين منّ عليهم بالعلم من لدنه فيقول: ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾[2].

- ويوصي الله عزّ وجلّ نبيّه الأكرم ﷺ بطلب العلم منه عزّ وجلّ، فيقول له: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾[3].

3. النعم كلّها:

في عدد من آيات القرآن الكريم ينسب الله سبحانه وتعالى بعض النعم التي يرفل بها الإنسان إليه عزّ وجلّ، ومن ذلك:

- وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ ﴾[4].

- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ ﴾[5].

- وأخيرًا يقول تعالى في مجال النِّعم: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[6]. ومن نتائج هذا الفعل من الأفعال الإلهيّة سمّي الله عزّ وجل بـ«**المنعم**».

(1) سورة البقرة، الآيتان 31 و 32.
(2) سورة الكهف، الآية 65.
(3) سورة طه، الآية 114.
(4) سورة لقمان، الآية 20.
(5) سورة الزمر، الآية 8.
(6) سورة الزمر، الآية 49.

نسبة النصر إلى الله

والنصر هو نعمة من النعم الإلهيّة التي يمكن أن تُنسب إلى الله تعالى، بناء على نسبة النعم إليه تعالى؛ ولكن لأجل خصوصيّة هذه النعمة نستعرض عددًا من الآيات التي تنسب هذه النعمة بخصوصها إلى الله عزّ وجلّ. بل إنّ بعض آيات القرآن الكريم يحصر هذه النعمة به عزّ وجلّ دون غيره من الناس أو المخلوقات.

يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴾[1]. بناء على أنّ المراد من النصر كما تقدّم هو العون والمدد الذي يمنّ الله به على المؤمنين لتتحقّق لهم النتيجة التي يرجونها منه تعالى.

ويقول تعالى في آية يحصر فيها النصر والعون به دون غيره من الوسائل والوسائط: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ لَكُمۡ وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦۚ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾[2].

ويقول عزّ وجلّ أيضًا: ﴿ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[3].

الدعاء بالنصر وطلبه من الله

ولا يقف الأمر عند حدّ الإخبار عن فعل الله في القرآن، بل أدّبنا التراث الدعائي الصادر عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام على طلب النعم كلّها من الله، ومنها النصر. وتكتفي بذكر نصّين، هما:

1. **دعاء الافتتاح:** هذا الدعاء من الأدعية التي يواظب المسلمون على قراءتها في ليالي شهر رمضان وهو من مفاخر الأدعية الإماميّة. وفيه طلب كثير من النعم

(1) سورة الأحزاب، الآية 9.
(2) سورة آل عمران، الآية 126؛ وانظر: سورة الأنفال: الآية 10.
(3) سورة الصف، الآية 13.

مـن الله تعالى، ومن هـذه النعم النصر الـذي تكرّر ذكره بأشـكال مختلفة على النحو الآتي في الدعاء للإمام المهديّ عجل الله تعالى فرجه: «**اللهمّ أعزّه واعزز به، وانصره وانتصر به، وانصره نصرًا عزيزًا، وافتح له فتحًا يسيرًا، واجعل له من لدنك سلطانًا نصيرًا... وانصرنا به على عدوّك وعدوّنا... وأعنّا على ذلك بفتح تعجّله... ونصرٍ تعزّه وسلطان حقٍّ تظهره...**».

2. **مـن الصحيفـة السجاديّـة:** وفـي الصحيفـة السجاديّة الكثير ممّا لـه صلة بهذا المعنـى، وعلـى رأس ما يمكن الإشـارة إليه مـن أدعية الصحيفـة وممّا له صلة بمفهوم النصر وطلبه من الله، قوله عليه السلام: «**وَأَلِّفْ جَمْعَهُمْ، وَدَبِّرْ أَمْرَهُمْ، وَوَاتِرْ بَيْـنَ مِيَرِهِـمْ، وَتَوَحَّـدْ بِكِفَايَـةِ مُؤْنِهِـمْ، وَاعْضُدْهُـمْ بِالنَّصْـرِ، وَأَعِنْهُـمْ بِالصَّبْرِ، وَالْطُفْ لَهُمْ فِي الْمَكْرِ**»[1]. وليس هذا المورد الوحيد في هذه الصحيفة المباركة؛ بل ثمّة غيره كثير ممّا يدلّ على النصر من عند الله تعالى، وينبغي أن يُطلب منه.

التوحيد الأفعالي ونسبة النصر إلى الله

يقـول الإمـام الخمينيّ قدس سره: «اكتـب بقلم العقل على صفحة القلـب: لا مؤثّر في الوجـود سوى الله». كلمة رائعة تصدر عن شخص خبـر انحصار التأثير في الوجود بـالله سبحانـه وتعالى، وعاشه معرفة وتجربـة وسلوكًا. وهذه الكلمـة الرائعة ليست مجرّد تجربة شخصيّـة يعبّر عنها هذا العارف الكبير في لحظة وجدٍ وساعة كشف، بل هي جزء من عقيدة الإمامية في التوحيد. وتوضيح ذلك أنّ التوحيد بحسب الرؤية الإمامية ينقسم إلى أقسام عدّة هي:

1. **التوحيـد فـي مقابـل التعـدّد:** ومعنى هـذه المرتبة من التوحيـد الإيمان بأنّ الله واحـدٌ لا شريك لـه. وهو أدنى مراتـب التوحيد. وهـذه المرتبة يعبّـر عنها بعض العلماء بأنّها توحيد العوامّ؛ لقدرة جميع الناس على فهمها وإدراكها والاعتقاد بها.

(1) الإمام زين العابدين عليه السلام، الصحيفة السجاديّة، من دعائه لأهل الثغور.

2 . **التوحيد في مقابل التركيب**: ومعنى هذه المرتبة نفي تركّب الذات الإلهيّة من أجزاء، كالوجود والماهيّة وغير ذلك. ويستدلّ علماء العقيدة على هذه المرتبة من التوحيد بأنّ المركّب يحتاج إلى إجزائه والله سبحانه غنيّ عن كلّ شيء حتّى عن الأجزاء.

3 . **التوحيد في مقابل زيادة الصفات**: والمراد من هذه المرتبة من مراتب التوحيد أنّ صفات الله تعالى ليست زائدة على الذات؛ لأنّها إن كانت حادثة فهذا يعني أنّ الله لم يكن متّصفًا بها ثمّ صار، وإن كانت قديمة فهذا يعني تعدّد القدماء، الأمر الذي لا ينسجم مع التوحيد بمعناه الأسمى الذي تقرّه العقيدة الإماميّة. وإن كان غير الإمامية يقبلون هذا المعنى ويؤمنون بما يسمّونه «**القدماء الثمانية**»[1].

4 . **التوحيد الأفعاليّ**: وحاصله أنّ الله تعالى لا يحتاج إلى أحد ليساعده على نيل ما يريد وتحقيق ما يشاء. وبحسب تعبير الشيخ جعفر سبحاني: «التوحيد الأفعالي هو أن نعترف بأنّ العالم بما فيه من العلل والمعاليل، والأسباب والمسبّبات، ما هو إلا فعل الله سبحانه، وأنّ الآثار صادرة عن مؤثّراتها بإرادته ومشيئته. فكما أنّ المخلوقات غير مستقلّة في ذواتها بل هي قائمة به سبحانه فكذا هي غير مستقلّة في تأثيرها وعليّتها وسببيّتها. فيستنتج من ذلك أنّ الله كما لا شريك له في ذاته، كذلك لا شريك له في فاعليّته وسببيّته، وأنّ كلّ سبب وفاعل، بذاتهما وحقيقتهما وبتأثيرهما وفاعليّتهما، قائمٌ به سبحانه وأنّه لا حول ولا قوّة إلا به»[2]. وتوجد مرتبة أخرى من التوحيد يحتاج التمييز بينها وبين هذه المرتبة إلى تدقيق ومزيد تفصيل ليس هذا محلّه وهو ما يسمّيه بعض العلماء بـ«**التوحيد الاستقلاليّ**»[3].

ويمكن إثبات هذه المرتبة من التوحيد بالاعتماد على العقل والدليل الفلسفيّ،

(1) انظر: محمد تقي مصباح اليزدي، دروس في العقيدة الإسلامية، ترجمة هاشم محمد، رابطة الثقافة والعلاقات الإسلامية، قم، 1997م، ص 151 – 153.

(2) الشيخ جعفر سبحاني، مفاهيم القرآن، مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام، قم، ج 1، ص 15.

(3) لمزيد من التفصيل، انظر: الشيخ اليزدي، مصدر سابق، ص 155.

كما يمكن إثباتها بالرجوع إلى القرآن الكريم. والدليل العقليّ الذي يستند إليه العلماء لإثبات هذه المرتبة من التوحيد يرتكز إلى تفسير طبيعة العلاقة بين الخالق والمخلوقين أو فلنقل بين العلّة الموجدة وبين الموجودات. فوجود الممكن وجود رابط غير مستقلٍّ، وما ليس مستقلًّا في أصل وجوده لا يمكن أن يكون مستقلًّا في تأثيره بل من الضروريّ أن تكون آثاره مرتبطة ومتوقّفة على العلّة الموجدة كأصل وجوده.

وأما من القرآن الكريم فتوجد آيات عدّة يمكن أن يُستفاد منها هذا المعنى، ومن هذه الآيات:

أ- قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡۚ وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰۚ﴾[1]. ففي هذه الآية يبيّن الله لرسوله ﷺ أنّ فاعل الرمي هو الله، والنتيجة المترتّبة على الرمي ينبغي أن تُنسب إلى الله، وليس إلى سواعد المجاهدين.

ب- كلّ الآيات التي تنسب بعض أفعال الإنسان إلى الله تعالى، كقوله عزّ وجلّ: ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَحۡرُثُونَ ٦٣ ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾[2]. ففي هذه الآية ينفي الله عزّ وجلّ الزرع عن الإنسان وينسبه إلى نفسه ولو بصيغة السؤال. وهذا يعني أنّه هو المؤثّر الأوحد في الوجود، على الرغم من اعتقاد الإنسان السطحيّ بأنّه هو الذي يزرع ويسقي الزرع ويرعاه لينمو ويحين وقت حصاده.

ج- قوله تعالى: ﴿وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[3]. يقول السيد الطباطبائي في تفسير مجموعة الآيات التي وردت هذه الآية في سياقها: «وهذه الآيات تعلّل ذلك (أي أنّ الشرك يسوق الإنسان إلى الهلاك) بأنّ ربّ الجميع واحدٌ إليه تدبير الكلّ يجب عليهم أن يدعوه ويشكروا له وتؤكّد توحيد ربّ العالمين من جهتين: إحداهما: أنّه تعالى هو

(1) سورة الأنفال: الآية 17.
(2) سورة الواقعة، الآيتان 63 و 64.
(3) سورة الأعراف، الآية 54.

الـذي خلق السمـاوات والأرض جميعًا ثـمّ دبّر أمرها بالنظـام الأحسن... والثانيـة: أنّه تعالى هو الذي يهيّئ لهـم الأرزاق بإخراج أنواع الثمرات...»[1] ثـمّ يتابع السيد الطباطبائي شرح مفهوم النظام الواحد الحاكم على الكون كلّـه بجميع تفاصيله وجزئيّاته، ويقـول أخيرًا: «والباحث عن النظام الكونيّ يجـد أن الأمر فيـه على هذه الشاكلـة، فالحوادث الجزئيـة تنتهي إلى علل وأسبـاب جزئية، وتنتهي هي إلى أسباب أخرى كلية حتى تنتهي الجميع إلى الله سبحانه غير أن الله سبحانه مع كلّ شيء وهو محيط بكل شيء»[2].

إذًا هـذه هي الرؤيـة الإسلامية إلى التوحيـد، وعلى ضوء هـذه الرؤية وانطلاقًا منها ينسب المسلمون النصر إلى الله كما ينسبون الرزق إليه على حدٍّ سواء. فالأمر بنـاء على هذه الرؤية ليس من بـاب التبرّك، ولا من باب المبالغة بل هذه النسبة من مقتضيات العقيدة الدينيّة الإسلامية، وجزء من الرؤية الكونية الإسلاميّة.

إلهيّة النصر بإلهيّة قيمته

أخيـرًا وقبل الانتقال إلى فكـرة أخرى تجدر الإشارة إلـى أنّ ما يعطي موجودات عالم الإمكان وأحداثه قيمة مضافةً إلى قيمتها المعهودة، أو فلنقل ما يعطي الأشياء غيـر المقدّسة قداستها ويضفي عليهـا قيمة معنويّة أو أخلاقيّة هو بعض الملابسات والخصوصيّـات التـي تحيط بهـا فترفعها من مرتبـة إلى أخـرى. والأمثلة على هذا الترقّي القيميّ للأشياء كثيرة منها مثلًا: الحجر والورق ومساحة محدّدة من الأرض. فالحجـر شيء مـاديّ لا احترام ولا قداسـة له، وأما عندما يدخل فـي بناء المسجد الحـرام فإنّـه يكتسب قداسة تفتقدها بقيـة أنواع الحجارة. والـورق يجوز استعماله فـي إشعال النار أو في غيـر ذلك، ولكن عندما تكتب عليه أسماء الله أو آيات القرآن

(1) الميزان في تفسير القرآن، ج 8، ص 147.
(2) (م.ن)، ص 150.

الكريم ويتحوّل إلى مصحف يكتسب قداسة تحرّم تنجيسه أو إحراقه كما تحرّم مسّه على غير المطهّرين. والأرض يجوز استعمالها في مصالح الإنسان مهما كانت هذه المصالح وضيعة أو رفيعة، وعندما تتحوّل إلى مسجدٍ تتبدّل أحكامها ويحرم دخولها على الإنسان في بعض الحالات كالجنب والحائض، ويحرم تنجيسها، وإذا حصل وتنجّست يجب تطهيرها في أقرب أزمنة الإمكان.

والنصر حدثٌ من الأحداث التي تصيب الإنسان، فإذا طلب لأجل الله واستثمر في سبيل الله كان نصرًا إلهيًّا وكانت كلّ قطرة بذلت في سبيل الحصول عليه طاهرة بمقاييس المعنى ومقدّسة ليس فوقها برّ: «**فوق كلّ ذي برٍّ برٌّ حتى يقتل الرجل في سبيل الله، فإذا قتل في سبيل الله فليس فوقه برّ**»[1]. ولأجل هذا يُقتل الشهيد كما يعبّر الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ﴾[2]؛ نعم يُقتل ولكنّه لا يموت كما ينبئنا الله سبحانه في آية أخرى: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ﴾[3]. وهذا المعنى يعبّر عنه بأحسن طريقة وأبلغها قوله عزّ وجلّ: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾[4]. وفي مقابل هذا النصر الذي يقع في صراط الله عزّ وجلّ وفي سبيله، نجد نصرًا وتمكينًا آخر يُستثمر بطريقةٍ أخرى يخبرنا الله عزّ وجلّ عنها بقوله: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ وَأَرۡسَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡهِم مِّدۡرَارٗا وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَنۡهَٰرَ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ﴾[5]. فالتمكين الأوّل إلهيٌّ لأنّه يصبّ في المقاصد التي يريدها الله عزّ وجلّ بخلاف الثاني.

(1) الكافي، ج2، ص348.
(2) سورة التوبة، الآية 111.
(3) سورة آل عمران، الآية 169.
(4) سورة الحجّ، الآية 41.
(5) سورة الأنعام، الآية 6.

وقفة تأمّلية

«لقد استطاع شعب إيران المجاهد أن يتغلّب بالإيمان بالله ووحدة الكلمة على قدرة شيطانية عظيمة تدعمها جميع القوى، وأن يقطع يد جميع القوى العظمى عن بلده».

«إنّ الإيمان بالله وبالمبادئ الإسلامية هو الذي حقّق لكم النصر».

«إنَّ سرَّ انتصارنا هو التوجّه نحو الله تبارك وتعالى والحرص على حراسة الإسلام».

«حافظوا على الأخلاق والسلوك الإسلاميين، فهما اللذان حقّقا لكم النصر».

«إنّ سرّ انتصاركم هو الإيمان ووحدة الكلمة».

«لقد استطاع شعب إيران المجاهد أن يتغلّب بالإيمان بالله ووحدة الكلمة على قدرة شيطانية عظيمة تدعمها جميع القوى، وأن يقطع يد جميع القوى العظمى عن بلده»

«إنّ الإيمان بالله وبالمبادئ الإسلامية هو الذي حقّق لكم النصر».

الإمام الخميني قدس سره، الكلمات القصار، ص123.

فلسفة نسبة النصر لله
نسبة النعم إلى الله تعالى
الرزق: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾
العلم: ﴿فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا﴾
النعم كلها: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗ﴾
النصر: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ لَكُمۡ وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦۚ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾
التوحيد الأفعالي والنصر
﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾
التوحيد في مقابل التعدُّد
التوحيد في مقابل التركيب
التوحيد الأفعاليّ
التوحيد في مقابل زيادة الصفات
الدعاء بالنصر
دعاء الافتتاح: «اللهمّ أعزّه واعزز به، وانصره وانتصر به، وانصره نصرًا عزيزًا، وافتح له فتحًا يسيرًا، واجعل له من لدنك سلطانًا نصيرًا... وانصرنا به على عدوّك وعدوّنا... وأعنّا على ذلك بفتح تعجّله... ونصرٍ تعزّه وسلطان حقٍّ تُظهره...»
الصحيفة السجادية: (وَأَلِّفْ جَمْعَهُمْ، وَدَبِّرْ أَمْرَهُمْ، وَوَاتِرْ بَيْنَ مِيَرِهِمْ، وَتَوَحَّدْ بِكِفَايَةِ مُؤْنِهِمْ، وَاعْضُدْهُمْ بِالنَّصْرِ، وَأَعِنْهُمْ بِالصَّبْرِ، وَالْطُفْ لَهُمْ فِي الْمَكْرِ).
إلهية النصر
قيمة الأشياء: إنّ الأشياء تأخذ قيمتها ممّا تنسب إليه أو يتّحد معها أو يقرن بها، ولذا فإنّ النصر قد قرن بالله سبحانه وتعالى فكانت قيمته فوق كلّ شيء ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾.

5

هل النصر سنّة؟ (1)
نماذج من السّنن القرآنية

مفاهيم محورية:

- **تعريف السنّة.**
- **سنن الله في القرآن الكريم.**
- **مداليل الآيات الكريمة في السنن.**
  - (1) علاقة الفعل ورد الفعل.
  - (2) المعرفة المسبقة.
  - (3) الدوام والاستمرار.
  - (4) حفظ الاختيار.

موعظة قرآنية

﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾[1].

مقدّمة

كلمة سنّة من الكلمات المتداولة في الفكر الإسلاميّ بكثرة، والمعنى الأشهر لها هو: «قول المعصوم وفعله وتقريره». وبهذا المعنى يكون كلّ ما ورد عن النبيّ ﷺ من أقوال وأفعال سنّةً، وكذلك كلّ ما ورد عن سكوته على بعض التصرّفات التي قام بها بعض المسلمين في محضره وسكت ولم يعترض عليها. وليس هذا المعنى هو المقصود هنا. بل المراد من كلمة سنّة معنى آخر هو المعنى الذي ورد في القرآن الكريم قبل أن تتحوّل هذه الكلمة إلى مصطلح اشتهرت دلالته على هذا المعنى المشار إليه أعلاه.

تعريف السنّة

كلمة سنّة كلمة وردت في اللغة العربية وكان العرب يستعملونها في محاوراتهم وأحاديثهم ثمّ أتى الإسلام ونزل الوحي على رسول الله ﷺ وأخذت هذه الكلمة معنًى

(1) سورة فاطر، الآيتان 42-43.

جديدًا سوف نبيّنه لاحقًا. ولكن لا بأس من توضيح المعنى الأوّل ليتّضح الانتقال من المعنى القديم إلى المعنى الجديد. وبالمناسبة لا بأس من الإشارة إلى أنّ أحد وجوه الإعجاز في القرآن الكريم هو استعماله لكلمات عربيّةٍ في معان جديدة بطريقة لا يشعر معها القارئ أو المستمع بشيء من الغرابة والاستهجان على الرغم من تبدّل المعاني القديمة واختلافها عن المعاني القديمة. وقد التفت إلى هذا الشكل من أشكال الإعجاز القرآنيّ كثير من العلماء منهم المفكر الياباني توشيهيكو إيزوتسو: «إنّ الكلمات نفسها كانت مستعملةً في اللغة الدارجة في القرن السابع الميلادي، إن لم يكن في الحدود الضيّقة لمجتمع مكّة التجاري، فعلى الأقل عند بعض الجماعات الدينيّة في الجزيرة العربية. إلا أنّها كانت تنتمي إلى نظام مفهوميّ مختلفٍ. وجاء الإسلام فجمعها معًا وضمّها كلّها في شبكة مفهوميّة جديدة كليًّا، وغير معروفة من قبل وهي كذلك حتّى اليوم. وقد أدّى هذا التحوّل في المفاهيم والتبدّل الجوهري للقيم الأخلاقيّة والدينيّة التي نشأت عنه، إلى إحداث تغيّر أساسيّ كامل في تصور العرب للعالم وللوجود الإنسانيّ. ومن وجهة نظر المختصّ بعلم الدلالة الذي يهتمّ بتاريخ الأفكار، فإنّ هذا، وليس أيّ شيء آخر، هو ما أعطى الرؤية القرآنيّة للكون هذا الطابع المميّز الواضح جدًّا. وإذا تكلّمنا بتعابير أعمّ، فإنّ من المعرفة الشائعة أنّ الكلمات إذا نُزِعت من تراكيبها التقليديّة الثابتة، وأدخلت في سياق جديد مختلف كليًّا، فإنّها تميل إلى التأثّر جوهريًّا بهذا الانتقال بالذات. وهذا ما يعرف بتأثير السياق على معاني الكلمات. وقد يؤدّي هذا التأثير إلى تحوّلات دقيقة في التوكيد، وإلى تغييرات طفيفة في الفارق المعنويّ الذي لا يكاد يدرك، وفي التصوير العاطفيّ الحيّ فحسب، ولكن الغالب هو حدوث تغيّرات عنيفة في بنية معاني الكلمات، ويظلّ هذا صحيحًا حتّى عندما تبقى الكلمة التي نحن بصدد إدخالها في النظام الجديّ محتفظة بمعناها الأساسيّ الذي كان لها في النظام القديم»[1].

(1) توشيهيكو إيزوتسو، الله والإنسان في القرآن، ترجمة هلال محمد الجهاد، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2007م، ص 35.

ومن هذه الكلمات التي ينطبق عليها هذا المبدأ كلمة «سنّة»، فهي كانت تدلّ في لغة العرب على الصبّ والجريان وهو المعنى الأصليّ لهذه الكلمة: «سننت الماء على وجهي أسُنّه سنًّا: إذا أرسلته إرسالًا، ثمّ اشتقّ منه رجلٌ مسنون الوجه كأنّ اللحم قدّ سُنّ على وجهه. والحمأ المسنون من ذلك، كأنّه قد صُبّ صبًّا»[1]. ثمّ تطوّر هذا المعنى وصار يُستعمل في القوانين التي يجري عليها الفعل الإلهيّ في المجتمعات الإنسانيّة سواء كان ذلك في عالم التشريع أو في عالم التكوين. ويشير المصطفوي إلى هذا التحوّل في معنى السنّة من جريان الماء إلى جريان القوانين والأوامر والأحكام الإلهيّة بقوله: «جريان أمر منضبط، سواء كان هذا الأمر وجريانه في ظهور صفة أو عمل أو قول، وتختلف باختلاف الموارد... وسُنّة الله تعالى: جريان من ظهور صفاته على ضوابط مخصوصة، وهذه الضوابط تختلف باختلاف كلّ صفة وبمقتضى خصوصيّاتها»[2].

سنن الله في القرآن الكريم

وقد وردت كلمة سنّة في القرآن الكريم مرّات عدّة في سياقات مختلفة منها، وربّما أكثرها في معنى المنهج والسيرة التي يجريها الله على بعض المجتمعات الإنسانيّة. ومن أمثلة ذلك الآيات الآتية:

1. قال الله تعالى ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾[3]. يقول السيد الطباطبائي في تفسير هذه الآية: «والسنّة هي الطريقة والسيرة. أمر النبيّ ﷺ أن يبلّغهم ذلك وفي معناه تطميع وتخويف وحقيقته دعوة إلى ترك القتال والفتنة ليغفر الله بذلك... فإن لم ينتهوا عمّا نهوا عنه فقد مضت سنّة الله في الأولين منهم بالإهلاك والإبادة وخسران السعي»[4].

(1) معجم مقاييس اللغة، مادّة: سنّ.
(2) التحقيق في كلمات القرآن، ج 5، ص 288.
(3) سورة الأنفال، الآية 38.
(4) الميزان في تفسير القرآن، ج 9، ص 75.

2 . قال الله تعالى ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾[1]. وفي هذه الآية يبيّن الله عزّ وجلّ أيضًا طريقته ومنهجه في التعامل مع الذي يحاولون الصدّ عن سبيله بإخراج رسله من ساحة دعوتهم وتبليغهم. وتقضي هذه الطريقة بأنّ المخرِجين سوف يستأصلهم الله من الأرض التي أخرجوا منها رسوله ويفكّك وحدتهم الاجتماعيّة التي كانت تربط بينهم وتدفعهم إلى ما أقدموا عليه من عدوان.

3 . قال الله تعالى ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾[2]. وتشبه هاتان الآيتان سابقتهما من حيث المضمون وذلك أنّ الله في هاتين الآيتين يهدّد المستكبرين الذين يقسمون على الاهتداء ولكنّهم بعد ذلك يستكبرون ويمكرون بالمنذرين الذين يأتون إليهم من قبل الله تعالى، يهدّدهم بما تقتضيه الطريقة والسنّة الإلهيّة في التعامل مع الأمم التي سبقتهم، ويلفت نظرهم في الآيتين اللاحقتين لهاتين الآيتين ويدعوهم إلى السير في الأرض والاعتبار بما جرى على الأوّلين وبالقوانين التي طبّقها الله عزّ وجلّ على من سبقهم من الأمم.

مداليل الآيات الكريمة في السنن

تفيدنا الآيات المتقدّمة أمورًا عدّة نستعرضها فيما يأتي لنطبّقها بعد ذلك على النصر الذي وعد الله به المؤمنين ونعرف هل هو سنّة من السنن التي يجريها الله تعالى على المؤمنين به أم هو حالة استثنائيّة يخصّ بها بعض الناس أو الجماعات في بعض الحالات دون غيرها.

(1) سورة الإسراء، الآيتان 76 و 77.
(2) سورة فاطر، الآيتان 42 و 43.

1 . العلاقة بين الفعل ورد الفعل:

السنّــة تشبه القانون الذي يحكم العلاقة بين الفعــل وردّ الفعل. ففي الآية الأولى يحدّثنا الله عن ملازمة المخاطبين بالآية سيرة الأمم الماضية (الفعل) وعن انطباق سنّــة الله على الأمم الماضية عليهم (ردّ الفعــل). وفي الآية الثانية يخبرنا عزّ وجلّ عــن أنّ إخراج الرسول مــن ميدان دعوته سوف يؤدّي (الفعل) إلى تفكّك المتمرّدين وفقدانهــم وحدتهم الاجتماعيّــة (ردّ الفعل). والأمر نفسه يُقــال فيما يرتبط بالآية الثالثة.

2 . المعرفة المسبقة:

يذكر العلماء أنّ ميزة القوانين التي يقدر العلم على اكتشافها أنّها تسمح للإنسان بالتنبّــؤ بالأحداث الآتية في الطبيعة. يؤدّي فهــم الإنسان لقانون الجاذبية إلى قدرة المهندسين مثلًا على تنظيم الأبنية وفق قوانين محدّدة تسمح بتماسك البناء وتحول دون انهيــاره. وكذلــك فهم القانون الذي يــؤدّي إلى الكسوف أو الخســوف يؤدّي إلى إمكان التنبّؤ بحدوث هاتين الظاهرتين قبل حصولهما وعلى هذين الأمرين يُقاس ما سواهمــا. وفيما نحن فيه معرفة سنّة الله في الأمم الماضية تهدي الإنسان إلى توقّع النتائــج والآثار التي تترتّب على أفعاله. ولا تغفل الآيــات المتقدّمة هذه الخصوصيّة في السنّة بل تلفت إليها بطريقة واضحة عندما تدعو إلى الاعتبار الذي هو النظر في مصائر السابقين والآثار التي ترتّبت على أفعالهم لمعرفة الآثار والنتائج التي سوف تترتّــب في حال تكرّر الفعــل نفسه أو ما يشبهه من الأمّة المدعــوّة إلى الاعتبار بمن سبقها من الأمم.

3 . الدوام والاستمرار:

الــدوام والاستمرار أو فقل الاطراد هو مــن الخصائص التي تجعل المبدأ قانونًا وسنّــة سواء كان ذلك في مجال العلم الطبيعيّ أو فــي مجال الإنسان والمجتمع. فلا

يكـون القانون قانونًـا إلا إذا انطبق على الجميع بطريقة واحـدة. وحتّى الاستثناءات التـي يظهر لأوّل وهلـة أنّها تخرق القاعدة يجـب أن تكون خاضعـة لاستثناء قانونيّ ينسجـم مع القانون الأصليّ. ومن هنا لا تكـون المعجزات خرقًا للقوانين التي تحكم علاقـة العلّـة بالمعلول[1]. ومن هنا لا يكون رفع التكليـف مثلاً عن بعض الناس خرقًا للقانون التشريعيّ، بل هو قانون يؤدّي إلى الاستثناء بشكلٍ قانونيّ. والآيات المتقدّمة تشير إلى دوام هذا المعنى بوضوح يغنينا عن الشرح والتفصيل.

4 . حفظ الاختيار:

الخصوصيّـة الرابعة من خصوصيّات القوانيـن الاجتماعيّة أنّها تحفظ للإنسان اختيـاره ولا تلغي إرادته. بل حتّى في القوانين الطبيعيّـة عندما يكتشف الإنسان سرّ القانون ويفهمه حقّ فهمه فإنّه وإن لم يكن قادرًا على تبديله وتغييره: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلًاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾[2]، لكنّـه قـادرٌ علـى التكيّف معـه والاستفادة منه. فالإنســان لا يقدر على إبطال قانـون الجاذبيّة المذكور أعلاه ولكنّه قادرٌ على تكييف حياتـه معه والاستفـادة منه وتوجيهه في خدمـة أغراضه ولو في حـدود مرسومة لا يمكـن تجاوزها. فبدل أن يجـري علينا قانون الجاذبية ويسقطنا من أعلى إلى أسفل يمكننـا الاستفادة منه في الاستقرار على وجه الأرض. والقوانين الاجتماعيّة أيضًا يمكن التعامل معها بهذه الطريقة فيمكن للإنسان أن يقدم على تحقيق الفعل ليتحقّق ردّ الفعـل، أو العكس يمتنع عن الفعل ويستفيـد من تجربة الأمم الماضية فلا يجري عليه ما جرى عليهم.

(1) إشـارة إلـى نقاش فلسفيّ يدور حـول المعجزات التي يأتي بهـا الأنبياء وأنّها لا تعدّ خرقًا لقانـون العليّة، بل هي مصداق من مصاديق قانون العليّة ولكن النبيّ الذي يأتي بالمعجزة يطّلع على علّة غير العلّة الطبيعيّة التي اعتاد النـاس عليهـا. وتفصيل هذا البحث له محلٌّ آخر. ومن أراد المزيد يمكنه الرجوع إلى كتب علم الكلام والفلسفة وكتب التفسير، ومن ذلك: الميزان في تفسير القرآن، ج 1، ص 73.

(2) سورة فاطر، الآية 43.

وقفة تأمّلية

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ والكلام يقع في ثلاثة مطالب: أحدها: إنّه لا ريب في عدم حاجة القادر المتعال إلى نصرة أحد فإنّه تعالى بوجوب وجوده غني بالذّات، والخلق محتاجون إليه كما قال تعالى شأنه: ﴿وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ﴾[1] فالمراد بنصرته كما ذكره المفسِّرون، ودلّت عليه الأخبار: هو نصرة دينه، ونصرة النبي والأئمة الأطهار، والأولياء الأبرار، وبعبارة أخرى كل من يكون في نصرته يكون في رضى الله تعالى، فنصرته نصرة الله، وهذا المطلب من غاية الوضوح بمكان لا يحتاج إلى شاهد وبرهان. الثاني: اعلم أنّ المراد بنصرته هو الإقدام والمساعدة في كلّ أمر عُلِم تعلُّق غرضه بوقوعه، ولهذا تتفاوت كيفية النصرة بحسب تفاوت الأزمان والأحوال والأمكنة، فالنصرة في زمان حضوره تحصل بوجه، وفي زمان غيبته بوجه آخر، فقد تكون النصرة بالتقية وقد تكون بالدعوة إليه وقد تكون بالجهاد بين يديه وقد تكون بالدعاء في تعجيل فرجه، وقد تكون بذكر فضائله، وصفاته، ودلائله، وعلاماته، وقد تكون بنصرة أوليائه وأحبّائه وقد تكون بتأليف الكتب ونشرها، إلى غير ذلك من أصناف النصرة، وهي كثيرة لا تخفى على أهل البصيرة. الثالث: في كيفية النصرة الإلهية، التي جعلها جزاء لنصرة العبد أولياء الله تعالى ودينه ورسله بحسب ما استفدناه من الروايات. فنقول: يمكن أن يكون المراد بهذه النصرة أن ينصر الله تعالى عبده في اليسر والعسر والسرّاء والضرّاء بأن يحفظه ممّا يُبعده عن رحمته من الأشر، والبطر، والطغيان، ونحوها من المهلكات، والموبقات، التي تعرض للعبد في حال الرخاء، ومن الجزع والهلع والكسل والفشل، ونحوها، ممّا يعرض للعبد في حال البلاء. وأمّا النصرة على الأعداء في دار الفناء فهي تابعة للمصالح والحكم الإلهية، فإنّها تتفاوت بحسب المقتضيات والأزمنة، فقد يكون أولياؤه في الدنيا غالبين، وقد يكونون مغلوبين، وذلك لحكم وعلل.

مكيال المكارم، الميرزا محمد تقي الأصفهاني، ج2، ص207.

(1) سورة محمّد، الآية 38.

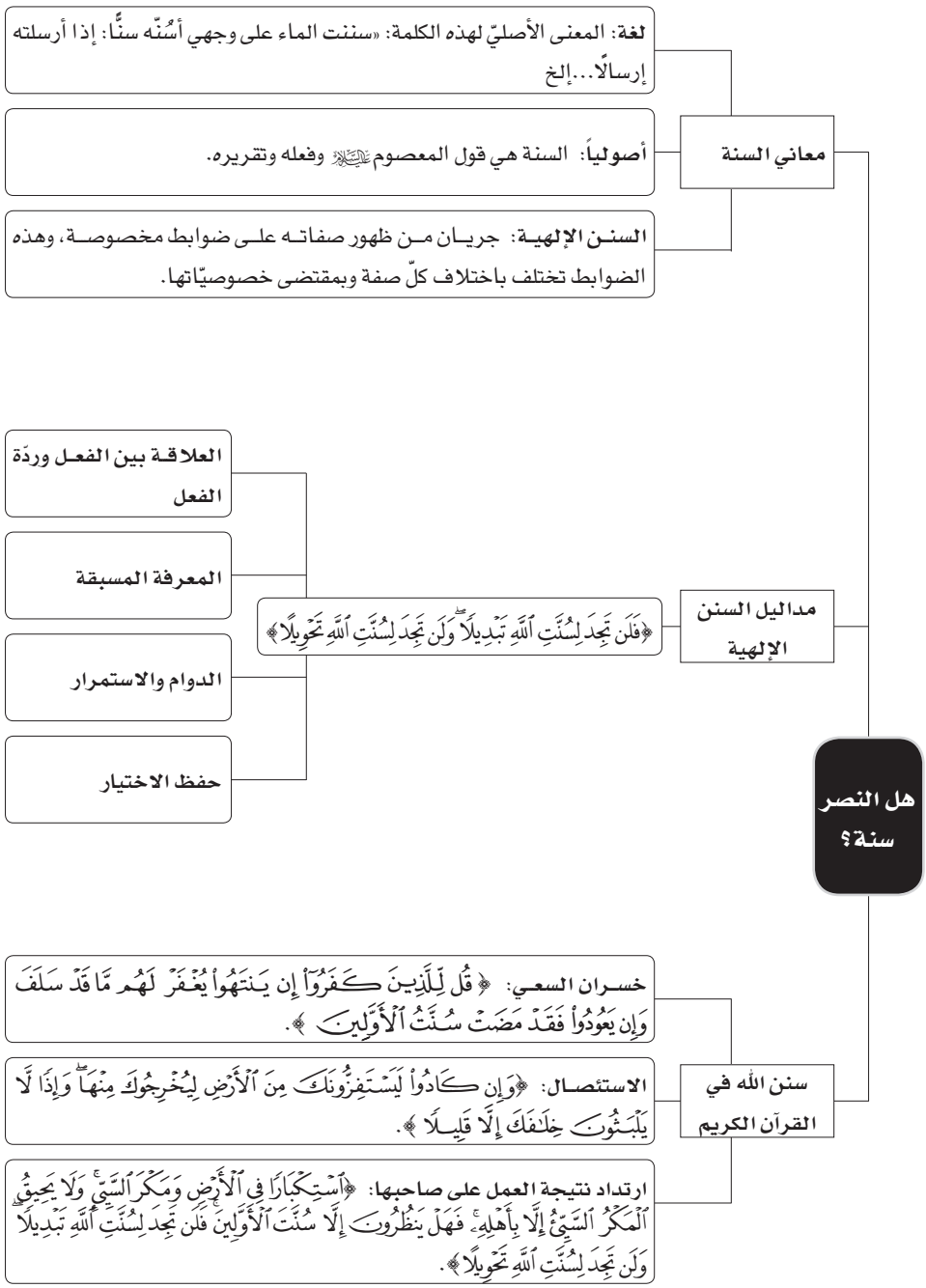
هل النصر سنة؟
معاني السنة
لغة: المعنى الأصليّ لهذه الكلمة: «سننت الماء على وجهي أسُنّه سنًّا: إذا أرسلته إرسالًا...إلخ
أصولياً: السنة هي قول المعصوم عليه السلام وفعله وتقريره.
السنن الإلهية: جريان من ظهور صفاته على ضوابط مخصوصة، وهذه الضوابط تختلف باختلاف كلّ صفة وبمقتضى خصوصيّاتها.
مداليل السنن الإلهية
﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلٗا﴾
العلاقة بين الفعل وردّة الفعل
المعرفة المسبقة
الدوام والاستمرار
حفظ الاختيار
سنن الله في القرآن الكريم
خسران السعي: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾.
الاستئصال: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَاۖ وَإِذٗا لَّا يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾.
ارتداد نتيجة العمل على صاحبها: ﴿ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّئِۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾.

6

هل النصر سنّة؟ (2)

سنن النصر الإلهيّ في القرآن الكريم

مفاهيم محورية:

- السنّة بحسب رأي الشهيد الصدر.
- كيف نثبت أنّ النصر سنّة؟
- آيات النصر في القرآن الكريم.
- الآيات العامّة في النصر.
- الآيات المصداقية في النصر.
- آيات الاعتبار بنصر سابق.

موعظة قرآنية

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾[1].

مقدّمة

هل النصر والمدد الإلهيّ سنّة من السنن وقانون كتبه الله على نفسه وألزم نفسه بـه؟ وما هي الشروط التي يجب على الإنسان توفيرها ليحصل عليه؟ أو فلنقل ما هو الفعـل الذي يجب على الإنسان أن يحقّقه لينال ردّ الفعل الإلهيّ وصدى فعله وجزاءه الحسن وهو النصر وتحقيق الأهداف؟

وللجـواب عن هذا السؤال يحسن بنا الاستعانة بجهود أحد العلماء الذين عالجوا موضوعًا شبيهًا بهذا الموضوع وأبدع في فتح هذا البحث وفيما انتهى إليه من نتائج، وهو الشهيد المرحوم السيد محمد باقر الصدر.

السنّة بحسب رأي الشهيد الصدر

يـرى الشهيد الصدر أنّ القرآن كشف عـن اهتمامه بما يسمّيه بالسنن التاريخيّة بأكثر من طريقة، فمرّة يخبرنا القرآن الكريم عن خضوع التاريخ البشريّ لمجموعة

(1) سورة البقرة، الآية 214.

مـن القوانين والسنن علـى نحوٍ عامٍّ، وثانية يخبرنا عن سنـنٍ بعينها من خلال ذكر المصاديـق والأمثلة لهذه السنن، وثالثة يمزج القـرآن بين النظريّة والتطبيق بحيث يبيّن المفهوم الكليّ في إطار المصداق، ورابعة يدعونا إلى النظر في التاريخ والتأمّل فـي مصائر الأمم الغابرة كي نكتشف القانون ونَعِي السنّة[1]. ومن أمثلة القسم الأوّل قولـه تعالـى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[2]. ومـن أمثلة القسـم الثاني قوله تعالـى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾[3] ومن أمثلة الحثّ على النظر في مصائر الشعـوب السابقة قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[4].

كيف نثبت أنّ النصر سنّة؟

يمكننـا معالجـة سؤالنا المطروح فـي العنوان على ضوء ما تقـدّم أعلاه والبحث عـن الآيـات التي تبيّن أن النصـر سنّة من السنن التي كتـب الله على نفسه الالتزام بهـا في أكثر من آية من آيات القرآن الكريم. ومـن الشواهد والقرائن العامّة الدالّة علـى أنّ النصـر سنّـة تعبير الله عـن منحه النصر لبعض الرسل والأمـم السابقة بصيغة المضارع. والفعـل المضارع كما يقرّ علماء اللغة العربيّة يدلّ على الاستمرار والتكرار. وهاتان السمتان من سمات القانون كما أشرنا آنفًا. ومن الآيات التي وردت بهذه الصيغـة قوله تعالـى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[5]. والتأكيـد المضاعـف الذي اتّسم به بعض عبارات القرآن التي تتحـدّث عن النصر

(1) السيـد محمد باقر الصدر، المدرسة القرآنيّة، الطبعة الأولى، مركـز الأبحاث والدراسات التخصّصيّة للشهيد الصدر، قم، 1421 هـ.ق.، ص 54.

(2) سورة الأعراف، الآية 34.

(3) سورة الأنعام، الآية 34.

(4) سـورة يوسـف، الآية 109. تجدر الإشارة إلى أنّ الأمثلة المذكورة للآيات الشريفة هي من الشهيد الصدر نفسه. انظر: المدرسة القرآنية، مصدر سابق، ص 55–66.

(5) سورة الحج، الآية 40.

تكشف عن أنّ النصر سنّة من السنن الإلهيّة التي يجريها الله عزّ وجلّ على من يستحقّها: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[1]. ونشير هنا إلى أداتي التوكيد اللام والنون، كما نلفت إلى أن الفعل كتب يدلّ على الجزم: «والكتابة معروفة المعنى ويُكنّى بها عن الفرض والعزيمة والقضاء الحتم»[2].

آيات النصر في القرآن

سوف نستعرض فيما يأتي الآيات التي تتضمّن الوعد الإلهيّ بالنصر للمؤمنين وفق التقسيم المذكور أعلاه؛ لنثبت أنّ النصر سنّة إلهيّةٌ عامّة تجري في عروق التاريخ وشرايين المجتمعات الإنسانيّة. وقد لا يُسعفنا التنظيم المنطقيّ للبحث عن استيفاء الأقسام المذكورة، والسبب هو اختلاف محور البحث عندنا عن المحور المعتمد عند الشهيد الصدر. وبيان ذلك أنّ الشهيد الصدر كان بصدد الحديث عن مبدأ خضوع حركة التاريخ البشريّ للقوانين والسنن، وأما نحن فإنّنا نبحث في مرحلة لاحقةٍ وهي مرحلة التسليم بهذا الخضوع والبحث عن سنّة بعينها هي سنّة النصر الإلهيّ. وتجدر الإشارة إلى أنّ ما نبغيه هو ذكر بعض الأمثلة ولسنا نرمي إلى الحصر والاستقصاء.

الآيات العامّة في النصر

من الصيغ التي ذكرت لتعبير القرآن عن السنن صيغة التعبير العامّ عن هذه السنّة ولو من باب بيان خضوع المجتمع والتاريخ للسنن والقوانين، وممّا وجدنا أنّه يمكن اندراجه في هذا الصنف الآيات الآتية:

1 . قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ

(1) سورة المجادلة، الآية 21.

(2) الميزان في تفسير القرآن، ج 2، ص 7.

ٱلۡمِهَادُ ﴾[1]. يأمر الله في هذه الآية بإبلاغ الذين كفروا بالقانون الإلهيّ الذي سوف يُطبّق عليهم وهو قانون الغلبة، مهما تطاولت الأيّام. وهذه الآية على الرغم من أنّها لا تتحدّث مباشرة عن نصر المؤمنين وانتصارهم، فإنّها تفيد هذا المعنى بوضوح، فعندما يُغلب الكافرون سوف يكون المنتصر هو الطرف المقابل لهم أي المؤمنون.

2 . قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴾[2]. وهذه الآية أيضًا تقرّر مبدأً عامًّا هو تحقّق الغلبة الدائمة لحزب الله على غيرهم من الجماعات التي توالي غير الله وتتحزّب له.

3 . قال الله تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾[3]. وهذه الآية على الرغم من ورودها في سياق الحديث عن النصر الذي منّ الله به على المسلمين في معركة بدرٍ إلا أنّ ختامها بهذه الطريقة يسمح بتصنيف هذا المقطع من الآية في خانة الآيات العامّة؛ وذلك لأنّه ختام مشعر بالتعليل، وصيغة النفي والاستثناء تؤكّد هذا المعنى. يقول السيد الطباطبائي في مقام إرجاع النصر والمدد إلى الله تعالى دون غيره من الوسائل حتّى لو كانت الملائكة: «...هو المقام الربوبيّ الذي ينتهي إليه كلّ أمرٍ وحكمٍ ولا يكفي عنه ولا يستقلّ دونه شيء من الأسباب، فالمعنى أنّ الملائكة الممدّين ليس لهم من أمر النصر شيء؛ بل هم أسباب ظاهريّة يجلبون لكم البشرى وطمأنينة القلب، وإنّما حقيقة النصر من الله سبحانه لا يغني عنه شيء وهو الله الذي ينتهي إليه كلّ أمرٍ، العزيز الذي لا يُغلب الحكيم الذي لا يجهل»[4].

(1) سورة آل عمران، الآية 12.
(2) سورة المائدة، الآية 56.
(3) سورة آل عمران، الآية 126.
(4) الميزان في تفسير القرآن، ج 4، ص 4.

4 . قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمۡنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[1]. ووجه تصنيف هذه الآية في الآيات العامّة أمران أحدهما أنّها تتحدّث عن الرسل الذين أرسلهم الله تعالى قبل النبيّ ﷺ ولا تشير إلى رسول بعينه منهم، وثانيهما أنّها تختم ببيان قاعدة عامّة مفادها أنّ الله جعل للمؤمنين على نفسه حقًّا أن ينصرهم ولا يكلهم إلى أنفسهم، ولا يلقي بهم طعمة للكافرين.

5 . قال الله تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ﴾[2]. وهذه الآية التي مرّت سابقًا تدخل في هذه المجموعة من الآيات التي تبيّن أنّ النصر سنّة من السنن الإلهيّة التي ألزم الله نفسه بها. وهي تشبه في لهجتها التعبير القرآنيّ الوارد في قوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۖ ﴾[3]وفي هذه الآيات غنًى وكفاية تعفي من الإطالة ومتابعة البحث.

الآيات المصداقيّة في النصر

- قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾[4]. هذه واحدةٌ من الآيات التي تخبرنا عن منّ الله بالنصر على المؤمنين. وهي وإن كانت آية خاصّةً بمعركة بدرٍ إلا أنّ لسانها يوحي بإمكان تعميم هذا المبدأ إلى غير هذه الواقعة من الوقائع. والمؤشّرات التي تسمح بمثل هذا التعميم هي: الحديث عن النصر مع الإشارة إلى الضعف وقلّة العدد الذي كان عليه المسلمون في ذلك الزمان، وختام الآية بالدعوة إلى التقوى والشكر الأمر الذي يوحي ولو على نحو الإشعار بالوعد بدوام مثل هذه المنّة إن ثبت المسلمون على

(1) سورة الروم، الآية 47.
(2) سورة المجادلة، الآية 21.
(3) سورة الأنعام، الآية 54.
(4) سورة آل عمران، الآية 123.

التقـوى والشكر. ويتأكّد هذا المعنى بملاحظة سيـاق الآية اللاحقة لهذه الآية ومـن ذلك قوله تعالى في الآية 125 من السورة نفسها: ﴿بَلَىٰٓ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾[1].

- قـال الله تعالـى: ﴿لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ﴾[2]، تكمـل هـذه الآيـة دلالـة الآية السابقـة وتوضحها. وتبيّن أنّ نصر الله للمؤمنين في بدرٍ لم يكن استثناءً بل كان هـو القاعدة. والهزيمة التي مُنِي بها المسلمون أوّلًا في حنين ناجمة عن الإعجاب بالكثرة وترك التوكّل على الله. وقد ورد في بعض الأخبار المرتبطة بغـزوة حنين أنّ أحد المسلمين قال: «**لن نغلب اليوم عـن قلّة**»[3]. ولكنّ الله يكشف في الآيات اللاحقة عن أنّه لم يترك المسلمين ولم يكلهم إلى أنفسهم بل عاد عليهم بعد أن أدّبهم وألفتهم إلى أنّ الكثرة لا تغني عن المدد الإلهيّ، فأنزل سكينته وأمدّهم بأسباب النصر الغيبيّة[4].
- قال الله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾[5]. وظاهـر هـذه الآيـة أنّهـا نزلت فـي معركة بـدرٍ كما يـرى عددٌ مـن المفسّريـن، وذلك أنّ المسلمين كانوا على هذه الحالة من الضعف والخوف وقت بدرٍ[6] وبعد هذا النصر تغيّر حال المسلمين، وقويت شوكتهم وقلّ طمع المشركين فيهم.

(1) سورة آل عمران، الآية 125.
(2) سورة التوبة، الآية 25.
(3) ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، النجف، 1956م، ج 1، ص 180.
(4) انظـر: سورة التوبة، الآية 26. ويمكن أن تكون هذه الآية نموذجًا آخر للآيات التي تتحدّث عن حالات محدّدة من النصر الإلهيّ.
(5) سورة الأنفال، الآية 26.
(6) الميـزان فـي تفسير القرآن، ج 9، ص 53؛ الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج 5، ص 299.

- قال الله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1]. وهذه الآية وإن كانت خاصّةً بالنبيّ ﷺ إلا أنّ سياقها يفيد أنّ انتصار النبيّ لا يتوقّف على نصر الناس له فقد نصره الله يوم لم يكن معه سوى رجلٍ واحدٍ. وهذا يدلّ بوضوح على أنّ الله يحقّق ما يريد من انتصار نبيّه وإتمام حجّته وتبليغ رسالته سواء كثر الناس حوله أم قلّوا وبالتالي تريد أن تقول هذه الآية لا يمنّنّ أحدٌ لا على الله ولا على رسوله، فإنّ الله إذا أراد أن ينصر رسوله ينصره ولو كان وحيدًا.

آيات الدعاء بالنصر

ورد في القرآن الكريم آياتٌ عدّة تتحدّث عن طلب المؤمنين النصر من الله تعالى. ووجه دلالة هذه المجموعة من الآيات على ما نحن فيه أي على أنّ النصر من عند الله وهو سنّة من سننه تعالى، هو نقل القرآن هذه المجموعة بطريقة تشبه إقرارهم الداعين على دعائهم ما يعني أنّ هؤلاء الداعين يطلبون ما يطلبون من محلّه ولو كان النصر يُطلب من محلٍّ آخر لندبهم الله تعالى إلى طلبه من حيث يجب أن يُطلب. ومن هذه الآيات:

- قال الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾[2]. ففي هذه الآية يخبرنا الله عزّ وجلّ عن أنّ هذه

(1) سورة التوبة، الآية 40.

(2) سورة البقرة، الآية 214.

الأمّـة سوف يحصل لها ما حصـل على الأمم السابقة مـن امتحان وابتلاء، وسوف يشتدّ عليها البلاء إلى درجة تجعل الرسول يتوجّه إلى الله ويسأل عن وقـت النصرة والمدد. وقد توقّف بعض المفسّرين عند إمكان أن يصدر مثل هـذا الأمر عن الرسول وقال: «ولا ضير في أن يتفوّه الرسول بمثل هذا الكلام استدعاءً للنصر الذي وعد به الله سبحانه رسله والمؤمنين بهم...»[1] وبغضّ النظـر عن القائل والداعي الذي يستنزل النصر من الله، فإنّ الله ينقل هذا الدعاء ولا يبيّن للداعي أنّه أخطأ في طلبه النصر من الله، وليس هذا فحسب بـل تكمل الآية وتبيّن أنّ نصر الله قريـبٌ؛ إذ يبدو من ظاهر الآية أنّ العبارة الأخيرة هي الجواب الإلهيّ والردّ على دعاء الداعي.

- قـال الله تعالـى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[2]. وهـذه آيـة أخـرى تحكي عن جند طالوت إذ برزوا في مواجهة جالوت وجنوده طلبوا من الله أن ينصرهم ويثبّت أقدامهم. ووجه الدلالة فيها ما تقدّم في الآية السابقة فـلا نعيـد. وتتأكّد دلالـة الآية بالنظر إلـى الآية اللاحقة التـي تكمل فتقول: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ﴾[3]، وإذن الله فـي هـذه الآية لا بـدّ مـن أن يُفهم على أنّه إذنٌ تكوينيٌّ وليس إذنًا تشريعيًّا، وذلك أنّه لا شكّ في الإذن التشريعيّ بهزيمتهم وبالتالي لا داعي لذكره، وما يستحقّ الذكر هو الإذن التكوينيّ لدفع توهّم أنّ القوّة الماديّة هي السبب في النصر، فبيّن الله أنّ النصر تحقّق بإذن الله وإرادته وليس بالاعتماد على المادّة والمادّيات.

(1) الميزان في تفسير القرآن، ج 2، ص 159.
(2) سورة البقرة: الآية 250.
(3) سورة البقرة: الآية 251.

وقفة تأمّلية

لو نزلتم إلى الميدان في سبيل الله وصمّدتم، فإنّ النصر أمر قطعي: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ... سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ ..﴾[1]، هذا الأمر لا يتعلّق بما جرى في معارك صدر الإسلام فقط ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ...﴾ هي سنة إلهية.... ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾[2] فإنّ الله تعالى سينصر حتماً وقطعاً، ومعنى ﴿وَلَيَنصُرَنَّ﴾، هو هذه القطعية والحتمية، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾[3].

الإمام الخامنئي دام ظله: كلمته في ذكرى انتفاضة أهالي قم/2013/1/8م.

بالطبع، نحن نُخطئ، فلا نُدرك أحياناً هذا التفضّل الإلهي ولا نرى يد العطف الربّانية التي تُظلّنا في مختلف القضايا. بعض الأحيان، نُخطئ من هذه الجهة حيث نتصوّر أنّنا نحن الذين نقوم بمثل هذه الأمور، في حين أنّنا لسنا كذلك. ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾[4].

«**قلب المؤمن بين إصبعي الرحمن**»، فمن الذي يجذب هؤلاء المؤمنين لينزلوا إلى الميادين ويجعلهم متوجّهين إلى الله بهذا الشكل؟ ليست إلا اليد الإلهية والقدرة الربّانية ولا غير، هذه هي الأمور التي تجعلنا متفائلين.

لا أُريد الاقتصار على تفصيل الوقائع فنحن جميعاً نُشاهدها تباعاً بل أُريد أن أصل إلى هذه النتيجة: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[5]، فالله تعالى يجعل تأييده إلى جانب النّصرة بواسطة المؤمنين، حيث إنّ الأمر هنا بالظاهر هو النّصرة المعنويّة، مثلما ورد: ﴿أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾[6] وأمثالها. ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ

(1) سورة الفتح، الآيتان 22 و23.
(2) سورة الحج، الآية 40.
(3) سورة النساء، الآية 122.
(4) سورة الأنفال، الآية 63.
(5) سورة الأنفال، الآية 62.
(6) سورة الأنفال، الآية 9.

أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[1] المؤمنون هم الذين يوجبون النّصرة، المؤمنون هم الذين يحفظون النظام ثابتاً، المؤمنون هم الذين يُعبّدون الطريق في الميادين المختلفة حتى يتمكّن النظام الإسلامي من إنجاز الأعمال الكبرى. ونحن لا ينبغي أن نتصوّرها: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾[2]، لا نتصوّرن أنّنا من يفعل ذلك، بل هي فعل الله.

الإمام الخامنئي دام ظله، كلمته في لقاء مجلس خبراء القيادة/ 2011/09/08م.

(1) سورة الأنفال، الآية 62.
(2) سورة القصص، الآية 78.

هل النصر سنة؟
السنن في القرآن عند الشهيد الصدر
خضوع التاريخ البشريّ لمجموعة من القوانين والسنن على نحوٍ عامٍّ.
الإخبار عن سننٍ بعينها من خلال ذكر المصاديق والأمثلة لهذه السنن.
مزج القرآن بين النظريّة والتطبيق بحيث يُبيّن المفهوم الكليّ في إطار المصداق.
الدعوة إلى النظر في التاريخ والتأمّل في مصائر الأمم الغابرة كي نكتشف القانون ونَعِي السنّة.
كيف نُثبت أن النصر سنة؟ (آيات النصر)
قانون الغلبة: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾.
تحقّق الغلبة الدائمة لحزب الله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾.
النصر من الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾.
النصر للمؤمنين من وعود الله: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.
النصر سنة إلهية: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾.
آيات النصر المصداقية
الهجرة النبوية: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.
معركة بدر: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.
بثّ القوة وإضعاف العدو: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.
معركة حنين: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾.
الدعاء بالنصر
طلب النصر: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾.
قصة معركة طالوت وجالوت: ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

7

أسباب النصر(1)
الأسباب الماديّة

مفاهيم محورية:

- **سنّة النصر واختيار الإنسان.**
- **الأسباب الماديّة للنصر.**
  - (1) العدّة: أ- العدّة في القرآن.
    ب- العدّة في الفقه الإسلاميّ.
  - (2) تجهيز الغازي.
  - (3) العدد: أ- الاهتمام بنوعية العديد.
    ب- تنظيم العديد.
    ج- العديد بين الكمّ والكيف.

موعظة قرآنية

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾[1].

مقدّمة

على الرغم من كون النصر نعمةً وسنّة من السنن الإلهيّة إلا أنّ إرادة الله اقتضت أن لا تجري الأمور بأسبابها سواء كانت هذه الأسباب ضعيفة أو قويّة. وقد قارنّا في محلٍّ سابق بين النصر والرزق، ونعيد هذه المقارنة لنرى أنّ الرزق وإن كان بيد الله حصرًا كما في عدد من الآيات الكريمة ومنها على سبيل المثال لا الحصر، قوله عزّ وجلّ: ﴿وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[2]؛ ولكنّ الله لم يقدّمه دائمًا مجّانًا بل رتّبه على أمور منها السعي في سبيل الرزق كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾[3]. وفي قصّة السيّدة مريم عليها السلام عبرةٌ إذ أمرَها الله تعالى بهزّ النخلة كي يسقط عليها الرطب الجنيّ،

(1) سورة الأنفال، الآية 60.

(2) سورة آل عمران، الآية 27.

(3) سورة الملك، الآية 15.

ألــم يكن الله الذي رزقها طفــلًا دون المقدّمات المتعارفة للحمل والولادة قادرًا على تقديم الطعام إليها دون عناءٍ: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾[1]. ولمّا كان النصر لا يُقدّم مجانًا ودون مقدّمات كان من الطبيعيّ البحث عن الأسباب والمقدّمــات التي تؤدّي إلى النصر. وهنا سؤال يطرحه الشهيد الصدر في بحثه عن السنــن الاجتماعيّة نعيد طرحه لما له مــن صلةٍ بمحلّ بحثنا. ثمّ ننتقل بعد ذلك إلى الحديث عن أسباب النصر ومقدّماته.

سنّة النصر واختيار الإنسان

يثيــر الحديث عن سنن التاريخ والقوانين الإلهيّة التي تحكم المجتمعات التساؤل عن دور الإرادة الإنسانيّة في تحقيق الآثار والنتائج التي تحصل في المجتمعات. فإذا كان التقدّم والتخلّف، والنصر والهزيمة، وغيرهما من الحالات التي تصيب المجتمع أو تحــدث فيه، نتائج للسنن الإلهيّة والقوانين التي تحكم هذه المجتمعات، فأين دور الإنســان وأين فاعليّته؟ وهل تشبــه النظرة الإسلاميّة هذه النظــرة الماركسيّة التي ترى أنّ المجتمعات تسير وفق قوانين تشبه القوانين التي تتحكّم بحركة الطبيعة فلا يد للإنسان فيها إلا القبول والخضوع؟

يجيب الشهيد الصدر عن هذا السؤال بالنفي. ويرى أنّ الطريقة التي عرض الله عــزّ وجلّ فيهــا السنن التي تحكم حركــة التاريخ تعطي للإنســان دورًا فاعلًا ومؤثّرًا وبالتالــي لا تنافي بيــن إلهيّة السنن وبيــن تأثير الإرادة الإنسانيّــة. فقد توهّم بعض الناســ: «أنّ هناك تعارضًا وتناقضًا بيــن حرّيّة الإنسان واختياره وبين سنن التاريخ، فإمّا أن نقول إنّ للتاريخ سننه وقوانينه، وبهذا نتنازل عن إرادة الإنسان واختياره وعن حريّتــه، وإما أن نسلّم بأنّ الإنسان كائــنٌ حرٌّ مريدٌ مختارٌ، وبهذا يجب أن نلغي سنن التاريــخ وقوانينه ونقول إنّ هــذه الساحة قد أعفيت من القوانيــن التي لم تعف منها

(1) سورة مريم، الآية 25.

بقية الساحات الكونية... هذا الوهم كان من الضروريّ للقرآن الكريم أن يزيحه وهو يعالــج هذه النقطــة بالذات. ومن هنا أكّد سبحانه وتعالى على أنّ المحور في تسلسل الأحداث والقضايا إنّما هو إرادة الإنسان...»[1]. وبعد أن يستشهد ببعض الآيات على ما يريد يعلّق قائلًا: «انظروا كيف أنّ السنن التاريخيّة لا تجري من فوق رأس الإنسان بل تجري من تحت يد الإنسان، فإنّ الله لا يغيّر ما بقومٍ حتّى يغيّروا ما بأنفسهم، وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقًا»[2].

أسباب النصر ومقدّماته

يمكــن تقسيم أسباب النصر ومقدّماته بطرقٍ عدّة، ولكنّنا سوف نعتمد خيار التقسيم الثلاثيّ لها وفق هذا المعيار. فهذه المقدمات إما أن تكون ماديّة طبيعيّة، وإمّــا أن تكــون غيبيّة من جهة الله تعالى، وإمّا أن تكــون أخلاقيّة وصفات نفسيّة يتّصف بها الإنسان الذي ينعم الله عليه بالنصر. وسوف نحاول استعراض عددٍ من الآيات التي تتضمّن مثل هذه الأسباب وفق هذا التقسيم. ولا ندّعي أنّه الخيار الوحيــد ولا الخيار الأحسن، ولكنّه الخيار الأيسر والأقــلّ تعقيدًا بحسب ما يبدو لنا.

الأسباب الماديّة للنصر

1 . العدّة:

لا شكّ في أنّ العدّة لها دورها في تحقيق النصر والغلبة. وهذا الأمر ممّا اعترف بــه الإســلام وندب المسلمين إليه بأشكال مختلفة. وقــد ورد في القرآن الكريم أكثر من آية تدعو إلى الاستعداد للحرب ومواجهة العدوّ. كما ورد مثل هذا الأمر في السنّة الشريفة بأشكال مختلفة نعرض لها فيما يأتي:

(1) المدرسة القرآنية، ص 75.
(2) (م.ن)، ص 76.

أ- العدّة في القرآن:

- قال الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾[1]. ورد في بعض كتب التفسير أنّ هذه الآية نزلت بعد معركة بدرٍ التي خرج المسلمون إليها دون أن يكونوا قد أعدّوا العدّة الكافية لها، فحذّرهم الله تعالى من العودة إلى ذلك ثانيةً[2]. والإعداد في الآية هو التهيئة، والقوّة هي كلّ ما يتقوّى به على العدوّ وقيل هي الرمي على وجه الخصوص، والرباط هو الخيل التي تربط في سبيل الله. وفي الآية نكتةٌ تستحقّ الالتفات إليها والتوقّف عندها وهي الفعل ترهبون إذ يُراد منه الخوف الذي يدخل على قلب العدوّ فيزيل طمعه في المسلمين وبالتالي يجعله يتردّد في فتح المعركة وهو ما يُعرف في عصرنا هذا بالردع. وربّما يكون المراد من الفعل هو أنّ العدّة لا تحقّق النصر بل أقصى ما تحقّقه هو إدخال الرهبة في قلوب الأعداء. وأخيرًا لا يخفى أنّ القوّة من العناصر المرنة التي تختلف من زمان إلى آخر تبعًا لتطوّر العلوم وتبدّل أسلحة العدوّ.
- قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾[3]. تتحدّث هذه الآية عن بعض المنافقين الذين كانوا يستأذنون النبيّ ﷺ تهرّبًا من القتال فكان النبيّ يأذن لهم كي يخرجهم من معسكره ويريح حشد المسلمين من شرّ وجودهم بينهم. ووجه دلالة الآية على ضرورة الإعداد للحرب والاستعداد لها، أنّ الله يحكم على هؤلاء القوم بأنّهم كاذبون في دعواهم العزم على الخروج للقتال والاستئذان بعد ذلك بالانسحاب، ومستند هذا الحكم عليهم هو عدم ظهور أمارات الاستعداد عليهم.

(1) سورة الأنفال، الآية 60.
(2) الفخر الرازي، التفسير الكبير، الطبعة 3، مكتبة أهل البيت الإلكترونيّة، ج 15، ص 184.
(3) سورة التوبة، الآية 46.

- قال الله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ... وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾[1]. تتحدّث هاتان الآيتان عن جماعة من المخلصين من المسلمين الذي يريدون الخروج إلى القتال مع النبيّ ﷺ ولكنّه لا يأذن لهم بالخروج معه لعدم توفّر الراحلة التي يحملهم عليها، وهم من جهتهم غير قادرين على تأمين رواحل تحملهم. والامتناع عن حملهم وفيض عيونهم بالدمع شوقًا إلى الجهاد يدلّ على أنّ المقاتل الذي لا يتوفّر له السلاح ووسيلة النقل لا يؤدّي خدمة مهمّة في ساحات القتال بل قد يتحوّل إلى عبء على المجاهدين الذين قد ينشغلون بالدفاع عنه والتفكير في حمايته وقت الحرب.

هذه الآيات الثلاث دليل واضح على اهتمام الإسلام بالعدّة مع التوكّل على الله والاعتماد عليه في تحقيق النصر. ومن التجربة المعاصرة يمكن الإشارة إلى تجربتين استقتا من هذا المنبع هما تجربة المقاومة الإسلاميّة التي راكمت خلال سنين ما أتيح لمجاهديها من قوّة وأسلحة دفاعيّة وهجوميّة حقّقت توازن ردع في مواجهة العدوّ؛ بحيث صار العدوّ أبعد ما يكون عن التهوّر والجرأة على الإقدام على فتح الحرب ساعة يشاء.

والتجربة الثانية والأهمّ على مستوى الإعداد والقوّة العسكريّة هي تجربة الجمهوريّة الإسلاميّة التي جعلت قيادتها الحكيمة في رأس أولويّاتها الاكتفاء الذاتيّ في مجال التصنيع العسكريّ. وقد بدأ مفجّر الثورة الإسلامية التفكير في هذا الأمر مبكّرًا، وقال في إحدى محاضراته في النجف الأشرف: «إنّ قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم ...﴾ يدلّ على وجوب الاستعداد بكل ما تيسّر من وسائل

(1) سورة التوبة، الآيتان 91 و 92.

الدفاع والهجوم. ولو أنّ المسلمين عملوا بهذا الحكم وأسّسوا دولة إسلاميّة مجهّزة بأساليب القوّة والاستعداد للتضحية، لما استطاع حفنة من اليهود احتلال بلاد المسلمين والتهديد بتخريب المسجد الأقصى وحرقه...»[1]. بل كان رحمه الله يفكّر في هذا الأمر قبل خروجه من إيران وذلك كما ورد في كتابه المشهور كشف الأسرار الذي نشر في بداية عهد محمد رضا بهلوي، إذ يقول فيه: «إذا كان الدفاع واجبًا على الجميع، فمقدّمات الدفاع واجبة أيضًا. ومن بين مصاديق الإعداد التشكيلات العسكريّة، وتعلّم فنون القتال على القادرين على ذلك»[2].

ب- العدّة في الفقه الإسلاميّ:

من المعلوم أنّ الفقه الإسلاميّ يحرّم الرهان والمسابقة التي فيها عوض ماليّ يأخذه الرابح. ويعدّ الفقهاء هذا الأمر من القمار. ولكن نجد أنّ الفقهاء الذين حرّموا الرهان واستندوا في تحريمه إلى أدلّة فقهيّة عدّة مرويّة عن النبيّ ﷺ وعن الأئمّة عليهم السلام، نجدهم يجوّزون الرهان في أمرين هما السبق والرماية، ويخصّصان لهاتين «اللعبتين» بابًا في الفقه الإسلاميّ يتحدّث عن أحكامهما[3]. ومن الأدلّة التي يستدلّون بها لجواز المسابقة والرماية مجموعة من الروايات عن النبيّ ﷺ والأئمّة عليهم السلام منها: «**إنّ رسول الله ﷺ أجرى الخيل وجعل سبقها أواقي من الفضّة**»[4]. وعن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام: «**لا سبق إلا في خفٍّ أو حافرٍ أو نصل**»[5]. ولا يحتاج تفسير تجويز مثل السبق والرماية إلى جهد كبيرٍ؛ إذ ارتباط هذين الأمرين بالاستعداد للحرب والقتال من الواضحات.

(1) الإمام الخميني، ولايت فقيه، ص 33.
(2) در جستجوي راه از كلام امام، دفتر 2، ص 6، نقلا عن: كشف الأسرار (فارسي)، ص 45-46.
(3) انظر كنموذج: السيد الخوئي، منهاج الصالحين، ج 2، ص 119.
(4) الحرّ العاملي، وسائل الشيعة، الطبعة 2، مؤسسة آل البيت، قم، 1414هـ.ق.، ج 11، ص 494.
(5) (م.ن).

2 . تجهيز الغازي:

تجهيز الغازي من المفاهيم المعروفة في الأدبيّات الإسلاميّة، وذلك أنّ التسليح في بداية الدولة الإسلاميّة كان أمرًا فرديًّا؛ ولأجل ذلك ورد أعلاه أنّ بعض المسلمين كانوا يأتون إلى النبيّ ﷺ وليس معهم ما يتجهّزون به للقتال. ومن هنا ورد الحثّ على تجهيز المقاتلين والإنفاق على التسليح. وقد ورد الحثّ على هذا الأمر في القرآن الكريم؛ إذ إنّ بعض الآيات التي تدعو إلى الإنفاق في سبيل الله يُراد منها الإنفاق على التسليح أو المجهود الحربيّ بحسب التعبير المتعارف في زماننا، وأوضح منها دلالة على ما نحن فيه الآيات التي تتحدّث عن الجهاد بالأموال إلى جانب الجهاد بالأنفس، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ ﴾[1]. وفي الأخبار الواردة في السنّة الشريفة دعوة واضحة إلى استحباب أو وجوب تجهيز المقاتلين على المقتدرين ماليًّا، ومن ذلك ما ورد عن النبيّ ﷺ: «**من جهّز غازيًا فقد غزا**»[2].

3 . العديد:

إلى جانب العدّة لا شكّ في أهميّة العديد وتأثيره في توازن القوى بين المسلمين وبين العدوّ. وهذا ما يفسِّر الأمر الإلهيّ المتكرّر في القرآن الكريم بالنفير للقتال ومواجهة المشركين وغيرهم من الأعداء الذين خاض المسلمون معهم معارك في عصر نزول القرآن الكريم. ولأجل هذا أيضًا وردت إدانات عدّة للذين يتخاذلون عن اللحاق بصفوف المسلمين وهم الذين يُعبّر عنهم في الأدبيّات الإسلاميّة بالقاعدين، أو الخوالف. ومن هذه الآيات ما يأتي:

- قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي

(1) سورة الأنفال، الآية 72.

(2) لم نعثر على هذا الحديث بهذه الصيغة في المصادر الحديثيّة الإماميّة ولكنّه ورد في عدد من كتب فقهاء الإماميّة، انظر: الشيخ الطوسي، الخلاف، الطبعة الثانية، قم، 1420هـ.ق.، ج 5، ص 517؛ العلامة الحلّي، منتهى المطلب، مكتبة أهل البيت الإلكترونيّة، ج 2، ص 900.

سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ﴾[1]. وفي هذه الآية دلالة واضحةٌ على ذمّ الذين يتثاقلون عن الخروج إلى القتال مع النبيّ ﷺ عندما يدعوهم إلى النفر والخروج.

- قال الله تعالى: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[2]. ودلالة هذه الآية أوضح من سابقتها إذ يأمر الله تعالى فيها بالنفر على كلّ حال ولو من دون توفّر السلاح على الرغم من أهميّته وضرورته كما تقدّم، إلا أنّه عندما تدعو الحاجة إلى النفير العامّ لا ينبغي للمسلم أن يتذرّع بأيّ ذريعة للتهرّب من النفير ولو كانت عدم توفّر ما يكفي من السلاح لأداء الواجب: «الخفاف والثقال جمعا خفيف وثقيل، والثقل بقرينة المقام كناية عن وجود الموانع الشاغلة الصارفة للإنسان عن الخروج إلى الجهاد نظير كثرة المشاغل الماليّة وحبّ الأهل والولد والأقرباء والأصدقاء الذي يوجب كراهة مفارقتهم، وفقد الزاد والراحلة والسلاح ونحو ذلك، والخفّة كناية عن خلاف ذلك. فالأمر بالنفر خفافًا وثقالًا وهما حالان متقابلان في معنى الأمر بالخروج على أيّ حال وعدم اتّخاذ شيء من ذلك عذرًا يعتذر به لترك الخروج»[3].

أ- الاهتمام بنوعيّة العدد:

ولم يهتمّ الإسلام بالعدد وحده بل اهتمّ بنوعيّة هذا العدد. وكان المطلوب إظهار ما توفّر من العدد في أحسن صورة تثير الرعب في قلب العدوّ ولو بالاعتماد على بعض التكتيكات التي تظهر صورة المسلمين على غير واقعها طلبًا لإثارة الرعب في قلوب الأعداء. وممّا يقع في هذا السياق الأمر بالخضاب في السنوات الأولى من عمر الرسالة الإسلاميّة. ويبدو أنّ هذا الأمر إجراء اعتمده النبيّ ﷺ والمسلمون

(1) سورة التوبة، الآية 38.
(2) سورة التوبة، الآية 41.
(3) الميزان في تفسير القرآن، ج 9، ص 277.

لإخفـاء الشيب وإظهار عسكر المسلمين وكأنّه يغلب عليه عنصر الشباب دفعًا لطمع العـدوّ بهم. ولأجل أنّ هذا التدبير كانت تقتضيـه الضرورة ورد في بعض الأخبار أنّ أمير المؤمنين سئل عن الخضاب فخيّر بينه وبين عدمه: «**سئل عليّ عليه السلام عن قول النبـيّ صلى الله عليه وآله وسلم: غيّـروا الشيـب ولا تشبّهوا باليهود، فقال: إنّما قـال ذلك والدين قلٌّ، وأمـا الآن وقـد اتّسع نطاقه وضـرب بجرانه، فامرؤٌ وما اختـار**»[1]. وورد أيضًا أنّه: «**قال عليه السلام وقد نظر إلى شيب في لحية رجلٍ: من شاب في الإسلام كانت له نورًا يوم القيامة، فخضب الرجل بالحنّاء، فلمّا رآه قال: نورٌ وإسلامٌ، فخضب بالسواد، فقـال عليه السلام: نور وإسلامٌ ومحبّة إلى نسائكم، ورهبة في قلوب أعدائكم**»[2]. ويدور أمر المرويّ عنه بين أن يكون النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وأن يكون الإمام الصادق عليه السلام.

ب- تنظيم العديد:

وكثرة العدد بحسب ما يقتضيه المنطق مضافًا إلى العلم العسكريّ لا يجدي كثيرًا إن لـم يكن منظّمًا، ولم تُستغلّ الطاقات البشريّـة المستعدّة للتضحية وبذل النفس. ومن هنا ينقل لنا القرآن الكريم بعض صور التنظيم العسكريّ الذي كان يتولّاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. كمـا ورد فـي السنّة والسيـرة الشريفة ما له صلة بهـذا؛ الأمر الذي سمح لبعض الباحثين تأليف الكتب في الخطط العسكرية التي كان يعتمدها النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم.

مـن القـرآن: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[3]. «غـدوت من الغدوّ وهـو الخروج غداة والتبوئة تهيئة المـكان للغير أو إسكانه وإيطانـه المكان والمقاعـد جمع [مقعد]... والمراد بأهل رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم خاصّته...»[4] والآيـة على أيّ حالٍ ظاهرة الدلالـة على تنظيم النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم صفـوف المسلمين وأمرهم باتخاذ مواقع قتاليّة استعدادًا لبدء المعركة.

(1) الحر العاملي، هداية الأمّة إلى أحكام الأئمّة، مجمع البحوث الإسلاميّة، مشهد، 1412هـ.ق.، ج 1، ص 146.
(2) (م.ن).
(3) سورة آل عمران، الآية 121.
(4) الميزان في تفسير القرآن، ج 4، ص 4.

من السيرة: السيرة النبويّة الشريفة مليئة بالأخبار التي تحكي عن كيفية إدارة النبيّ ﷺ معاركه وكيفيّة توزيع الصفوف وتنظيمها. ونكتفي بذكر واقعة واحدة تحكي عن شيء من هذا. وذلك ما ورد في أخبار معركة أحد التي انقلب النصر فيها إلى هزيمة، بعد أن ترك الرماة مواقعهم طلبًا للغنيمة فعاد جيش المشركين الذي كان منهزمًا مستغلًّا فرصة انكشاف ظهر المسلمين وانشغال بعضهم بتقسيم الغنائم. وقد تحوّل النصر السابق إلى هزيمة حتّى قال أبو سفيان معبّرًا عن فرحته بالثأر ممّا ناله وحزبه يوم بدر: «**يوم بيوم بدر، ألا إنّ الأيام دول، وإنّ الحرب سجال وحنظلة بحنظلة**»[1]. ولولا ثبات مجموعة من المسلمين على رأسهم النبيّ ﷺ وأمير المؤمنين عليه السلام وآخرين ربّما كان يوم أحد هو المعركة الأخيرة التي خاضها المسلمون.

ج- العديد بين الكمّ والكيف:

لم يخلُ القرآن الكريم من بيان أهميّة العديد ودور كثرة المقاتلين في تقوية جبهة الإسلام وتحصين معسكره ولكن لفت إلى أنّ الكثرة ليست مطلبًا بحدّ ذاته فربّ كثرة لا تغني بل تفسد. وتخرّب ووردت في هذا المجال أكثر من آية في كتاب الله عزّ وجلّ منها:

- قال الله تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾[2]. تتحدّث هذه الآية عن المنافقين الذين لا ينبغي الرهان عليهم لا في السلم ولا في الحرب. والخبال هو الفساد واضطراب الرأي. والإيضاع الإسراع في الشر، والخلال البين، والبغي هو الطلب فمعنى يبغونكم الفتنة أي يطلبون لكم أو فيكم الفتنة... وهي المحنة كالفرقة واختلاف الكلمة... وتفرّق الجماعة من قبل هذه الغزوة وهي غزوة تبوك كما في غزوة أحد حين رجع عبد الله بن أبي سلول بثلث القوم وخذل النبيّ ﷺ، وقلبوا لك الأمور بدعوة الناس

(1) الحاكم النيسابوري، المستدرك، ج 2، ص 297.
(2) سورة التوبة، الآية 47.

إلـى الخلاف وتحريضهم على المعصيـة وخذلانهم عن الجهاد وبعث اليهود والمشركين على قتال المؤمنين والتجسّس وغير ذلك...»[1].

- قال الله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[2]. تقصّ لنا هذه الآية شيئًا من قصّـة النبيّ داود عليه السلام وتحكي لنا خبر جنود طالوت الذين كان فيهم من أهل الإيمان الكامل وفيهم غير المؤمنين ومن هم غير كاملي الإيمان، وقد صدر هذا الكلام الحكيم عن الجماعة الأولى الذين وصفهم الله تعالى بأنّهم يظنّون أنّهم ملاقـو الله، «**والظنّ بلقاء الله إمـا بمعنى اليقين، وإمّا كناية عن الخشوع**»[3]. وعلـى أيّ حال نقل هـذا الكلام عن جماعة يصفها الله بهـذا الوصف مع عدم إبطاله ونقضه يدلّ على التأييد الإلهيّ له وإقرار أصحابه على صحّته.

ويؤيّـد واقع الحال المعاصـر للمسلمين هذا التقييم القرآنـيّ للكثرة والقلّة فربّ كثـرة كغثـاء السيل، كما ورد فـي الحديث المشهور عن رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كلّ أفق كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، قيل: يا رسول الله: فمن قلّة بنا يومئذٍ؟ قال: لا؛ ولكنّكم كغثاء السيل يجعل الوهن في قلوبكم وينزع الرعـب مـن قلوب عدوّكـم لحبّكم الدنيـا وكراهتكم الموت**»[4]. وقـد شهد تاريخنا الإسلاميّ المعاصر كثرة كغثاء سمحت لشذّاذ الآفاق بالسيطرة على بلاد المسلمين وثرواتهـم وتأسيـس كيان غريب عن جسم الأمّة في قلبهـا. وكل المؤشّرات تدلّ على أنّنـا نشهـد تحوّلًا في تاريخ الأمّة يغيّر حالها بعد أن بدأت تغيّر ما بها. ونسأل الله أن تكون في هذه الأمّة في مستقبلها كثرة كالسيل وليس كغثائه.

---

(1) الميزان في تفسير القرآن، ج 9، ص 290.

(2) سورة البقرة، الآية 249.

(3) الميزان في تفسير القرآن، ج 2، ص 292.

(4) حديـث مشهـور لم نعثر عليه في المصادر الإماميّة، وهو مرويٌّ في كتـب أهل السنّة، انظر: المتّقي الهندي، كنز العمّال، ج 11، ص 132.

وقفة تأمّلية

الإعداد والاستعداد سبيل النصر

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾[1] أمر عام بتهيئة المؤمنين مبلغ استطاعتهم من القوى الحربية ما يحتاجون إليه قبال ما لهم من الأعداء في الوجود أو في الفرض والاعتبار، فانّ المجتمع الإنساني لا يخلو من التألّف من أفراد أو أقوام مختلفي الطباع ومتضادي الأفكار لا ينعقد بينهم مجتمع على سنة قيمة ينافعهم إلا وهناك مجتمع آخر يضاده في منافعه، ويخالفه في سنته، ولا يعيشان معاً برهة من الدهر إلا وينشب بينهما الخلاف ويؤدّي ذلك إلى التغلّب والقهر. فالحروب المبيدة والاختلافات الداعية إليها ممّا لا مناص عنها في المجتمعات الإنسانية والمجتمعات هي هذه المجتمعات، ويدلّ على ذلك ما نُشاهده من تجهّز الإنسان في خلقه بقوى لا يُستفاد منها إلا للدفاع كالغضب والشدّة في الأبدان، والفكر العامل في القهر والغلبة، فمن الواجب الفطري على المجتمع الإسلامي أن يتجهّز دائماً بإعداد ما استطاع من قوّة ومن رباط الخيل بحسب ما يفترضه من عدو لمجتمعه الصالح. والذي اختاره الله للمجتمع الإسلامي بما أنزل عليهم من الدين الفطري الذي هو الدين القيّم هي الحكومة الإنسانية التي يحفظ فيها حقوق كل فرد من أفراد مجتمعها، ويراعي فيها مصلحة الضعيف والقوي والغني والفقير والحر والعبد والرجل والمرأة والفرد والجماعة والبعض والكل على حدٍّ سواء دون الحكومة الفردية الاستبدادية التي لا تسير إلا على ما تهواه نفس الفرد المتولّي لها الحاكم في دماء الناس وأعراضهم وأموالهم بما شاء وأراد، ولا الحكومة الأكثرية التي تطابق أهواء الجمهور من الناس وتبطل منافع آخرين وترضى الأكثرين (النصف + واحد) وتضطهد وتسخط الأقلّين (النصف – واحد). ولعلّ هذا هو السرّ في قوله تعالى:

(1) سورة الأنفال، الآية 60.

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾[1] حيث وجّه الخطاب إلى الناس بعد ما كان الخطاب في الآيات السابقة موجّهاً إلى النبي ﷺ كقوله: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ ﴾[2] وقوله: ﴿ فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ﴾[3] وقوله: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْ ﴾[4] وكذا في الآيات التالية كقوله: ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا ﴾[5] إلى غير ذلك. وذلك أنّ الحكومة الإسلامية حكومة إنسانية بمعنى مراعاة حقوق كل فرد وتعظيم إرادة البعض واحترام جانبه أي من كان من غير اختصاص الإرادة المؤثّرة بفرد واحد أو بأكثر الأفراد. فالمنافع التي يُهدّدها عدوّهم هي منافع كل فرد، فعلى كل فرد أن يقوم بالذبّ عنها، ويعد ما استطاع من قوة لحفظها من الضيعة، والإعداد وإن كان منه ما لا يقوم بأمره إلا الحكومات بما لها من الاستطاعة القوية والإمكانات البالغة لكن منها ما يقوم بالأفراد بفرديّتهم كتعلّم العلوم الحربية والتدرُّب بفنونها فالتكليف تكليف الجميع.

الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي، ج9، ص115.

(1) سورة الأنفال، الآية 60.
(2) سورة الأنفال، الآية 57.
(3) سورة الأنفال، الآية 58.
(4) سورة الأنفال، الآية 59.
(5) سورة الأنفال، الآية 61.

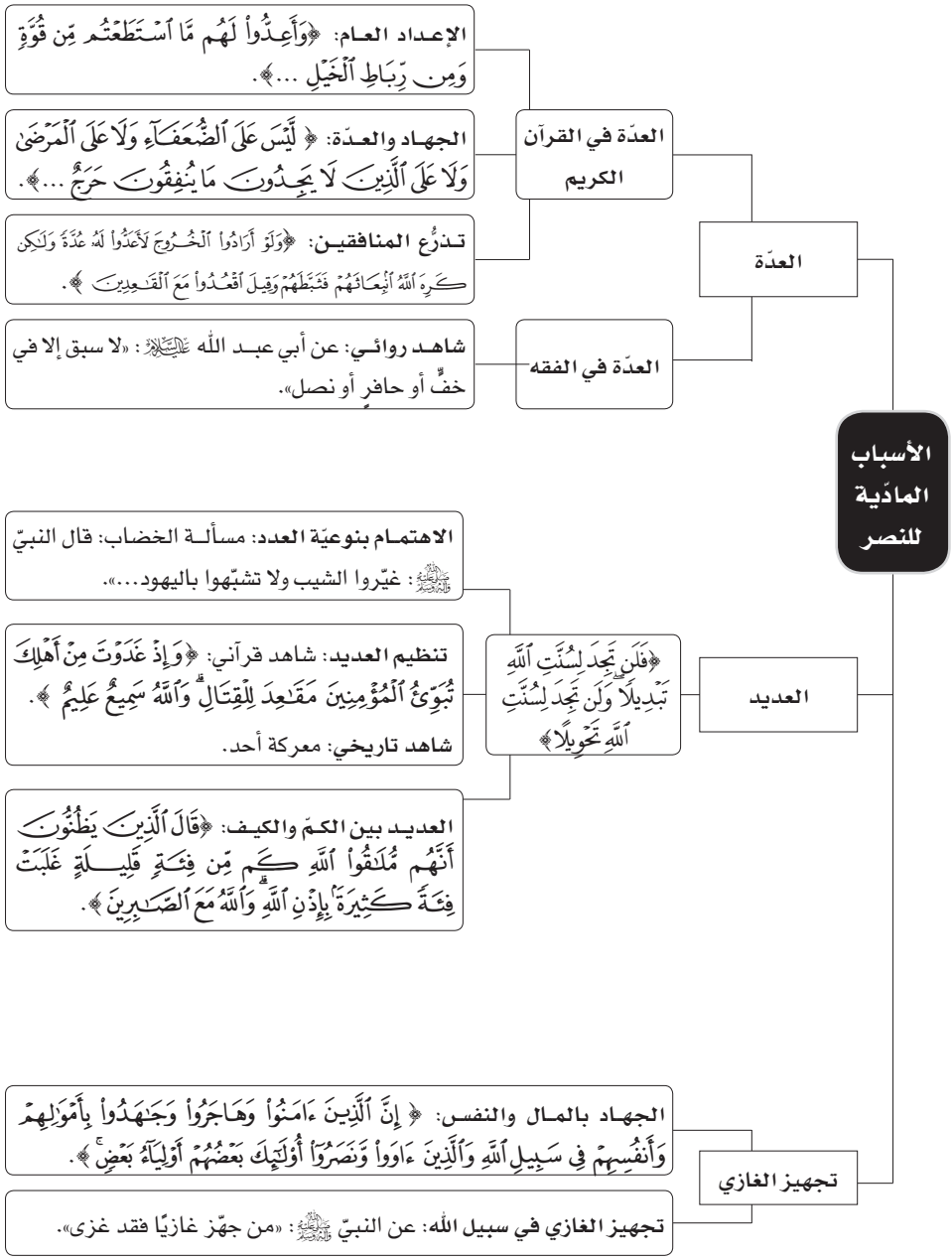
الأسباب المادّية للنصر
العدّة
العدّة في القرآن الكريم
الإعداد العام: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ ...﴾.
الجهاد والعدّة: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ ...﴾.
تذرُّع المنافقين: ﴿وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾.
العدّة في الفقه
شاهد روائي: عن أبي عبد الله عليه السلام: «لا سبق إلا في خفٍّ أو حافرٍ أو نصل».
العديد
﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾
الاهتمام بنوعيّة العدد: مسألة الخضاب: قال النبيّ صلى الله عليه وآله: غيّروا الشيب ولا تشبّهوا باليهود...».
تنظيم العديد: شاهد قرآني: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.
شاهد تاريخي: معركة أحد.
العديد بين الكمّ والكيف: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.
تجهيز الغازي
الجهاد بالمال والنفس: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾.
تجهيز الغازي في سبيل الله: عن النبيّ صلى الله عليه وآله: «من جهّز غازيًا فقد غزى».

8

أسباب النصر (2)
الأسباب المعنويّة

مفاهيم محورية:

الأسباب المعنوية للنصر.

(1) الإيمان وأثره في النصر.

(2) العمل الصالح.

(3) الصبر والثبات.

(4) التوكّل.

موعظة قرآنية

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾[1].

مقدّمة

يبدو أنّه لا نقاش في تأثر الجانب المعنويّ في تحقيق النصر سواء كان ذلك بطريقة غيبيّة لا نعلمها أم كان ذلك بطريقة يمكن تحليلها والاهتداء إلى حقيقتها وكيفية تأثير البعد المعنويّ على الإنسان في حياته الطبيعيّة كالنصر والهزيمة وما شابه من الحالات. وسوف نستعرض فيما يأتي الأسباب المعنويّة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم. وسوف نحاول تحليل ما يسعفنا التحليل في فهمه، ونكتفي فيما سواه بعرضه والتسليم به لشهادة الوحي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

الإيمان

الإيمان في اللغة كلمة تتضمّن معاني عدّة هي الوثوق والتصديق والركون. ويبدو أنّ هذه الكلمة على الرغم من تعدّد استعمالاتها وتنوّعها إلا أنّها أصل لغويّ واحد

(1) سورة الأنفال، الآية 65.

تعـددت معانيه بتعدّد استعمالاته. فيُقال: أمن فلانٌ فهو آمن على نفسه، وأمن البلد، وآمن بالله، وأتمنت زيدًا على كذا. يقول المصطفوي في شرح هذه المفردة القرآنية: «والتحقيق أنّ الأصل الواحد في هذه المادة: هو الأمن والسكون ورفع الخوف والوحشة والاضطراب. يقال أمِن يأمن أمنًا؛ أي اطمأنّ وزال عنه الخوف... والائتمان هو أخذه أمينًـا. والإيمان جعل نفسـه أو غيره في الأمن والسكون. والإيمان به حصول السكون والطمأنينـة بـه... ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾[1] أي اطمأنّـوا وحصـل لهم الأمن. وآمن بالله: حصل له الاطمئنان والسكون بالله المتعال، فهو مؤمن أي مطمئنٌّ»[2].

وقـد ورد في القرآن الكريم أكثر من آية تربط بين النصر وبين الإيمان، ولا يبدو أنّ ثمّة حاجة لاستعراضها جميعًا؛ ولذلك نكتفي بالإشارة إلى بعضها، ومنها:

- قـال الله تعالـى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[3]. من حيث المبدإ لا حقّ لأحـدٍ على الله ولا عنده عزّ وجلّ، فكل ما يفيضـ من الله يفيض على أساس الجود والكرم والتفضّل، ولكنّ الله يكتب على نفسه بعض الأمور، فتتحوّل إلى حـقٍّ بالوعد الإلهيّ بالتفضّل. وكفى بالوعد الإلهيّ وثيقة للتحقّق: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾[4].
- وفـي آية أخرى يقول عزّ وجلّ بلسـان الوعد: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾[5]. وفـي هـذه الآيـة وعد من الله أيضًا بالنصر ولو بكلمات: الاستخلاف، والأمن، والتمكين، فقد تقدّم أنّ التعبير القرآني عن النصر متعدد الصيغ.

(1) سورة النساء، الآية 152.
(2) التحقيق في كلمات القرآن، ج 1، ص 164-165.
(3) سورة الروم، الآية 47.
(4) سورة الزمر، الآية 20.
(5) سورة النور، الآية 55.

- قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾[1]. وهذه الآية أيضًا واضحة الدلالة على أنّ صفة الإيمان التي يتّصف بها أصحاب رسول الله ﷺ هي أحد الأسس التي تسقط العدد من الاعتبار وتعطي المؤمنين ميزة تجعل الواحد منهم يعادل عشرة من غيرهم.

أثر الإيمان في النصر

والربط بين الإيمان والنصر من الأمور التي يمكن للإنسان أن يدركها. فالمؤمن يستند إلى ركنٍ وثيق هو الله، ويمتاز بدافع قويٍّ للتضحية لا يتوفّر عند غيره من الناس، فهو كما تقول الآية الشريفة: ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَۗ ﴾[2]. فاختلاف الرجاء والغاية التي يسعى الإنسان من أجلها تؤثّر في الدافع الذي يدفع الإنسان إلى التضحية وبذل النفس من أجله. وخاصّة إذا أخذنا بالاعتبار أنّ المؤمن يطلب إحدى الحسنيين كما تقدّم فإن انتصر فبها ونعمت وإن استشهد فإنّه ينقلب إلى ربٍّ غفور، فهو يعتقد أنّ بين حالين كلاهما حسن، ومن ينظر إلى الأمور بهذه الطريقة لا يعرف اليأس إلى قلبه سبيلًا. والشرط الأساس في هذه الصفة حتّى تؤثّر أثرها أن تبقى اسمًا ورسمًا وأما إن تحوّلت إلى اسم خالٍ من المضمون فلا ينبغي توقّع تحقّق الوعد الإلهيّ بالنصر، فالنصر المجانيّ غاية لا تدرك وبغية لا تُنال: «والحكم أعني النصر والغلبة حكم اجتماعيّ منوط على العنوان لا غير؛ أي إنّ الرسل وهم عباد أرسلهم الله والمؤمنون وهو جند الله يعملون بأمره ويجاهدون في سبيله ما داموا على هذا النعت منصورون غالبون، وأما إذا لم يبق من الإيمان إلا اسمه ومن الانتساب إلا حديثه فلا ينبغي أن يرجى

(1) سورة الأنفال، الآية 65.
(2) سورة النساء، الآية 104.

نصـرٌ ولا غلبـة»[1]. وبالتالي قد يهـزم المسلمون إذا فقدت أكثريّتهـم الاتّصاف بهذه الصفـة حتّى لو كان فيهم نبيّ من أنبياء الله تعالـى: «هناك جانب آخر لعمليّة التغيير التـي مارسها النبيّ ﷺ وأصحابه الأطهار، هـذه العمليّة حينما تلحظ بوصفها عمليّة متجسّـدة في جماعة من النـاس وهم النبيّ والصحابة.. وبوصفهـا عمليّة قد واجهت تيّـارات اجتماعيـة مختلفة مـن حولها واشتبكت معهـا في ألوان من الصـراع والنزاع العقائـديّ والاجتماعيّ والسياسيّ والعسكريّ... حينمـا تؤخذ العمليّة من هذه الزاوية تكـون عمليّة بشريّة، يكـون هؤلاء أناسًا كسائـر الناس تتحكّم فيهـم إلى درجة كبيرة سنن التاريـخ التي تتحكّم في بقية الجماعات وفي بقيّة الفئـات.. المسلمون انتصروا في بدر حينما كانت الشروط الموضوعيّة للنصر بحسب منطق سنن التاريخ تفرض أن ينتصـروا، وخسروا المعركة في أحد حينما كانت الشروط الموضوعيّة في معركة أحد تفرض عليهم أن يخسروا المعركة... لا تتخيّلوا أن النصر حقٌّ إلهيٌّ لكم، وإنما النصر حـقٌّ طبيعيّ لكـم بقدر ما يمكن أن توفّـروا الشروط الموضوعيّة لهـذا النصر بحسب منطق سنن التاريخ التي وضعها الله سبحانه وتعالى كونيًّا لا تشريعيًّا»[2].

العمل الصالح

العمـل الصالح السابق على النصر واللاحق له من العناصر المهمّة في استنزال النصـر. وقد بيّن الله هذا الأمـر في عددٍ من الآيات. ونكتفـي باستعراض أقل عددٍ ممكـنٍ من هذه الآيات لأنّ مفهـوم الإيمان في القرآن الكريم من المفاهيم المقرونة بالعمل الصالح في كثير من الآيات.

- قـال الله تعالـى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ

(1) الميزان في تفسير القرآن، ج 17، ص 177.
(2) المدرسة القرآنية، ص 50-51.

﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ﴾[1]. نلاحظ في هذه الآية أنّ النصر الذي يعد به الله تعالى مقيّدٌ بصفتين هما الإيمان والعمل الصالح.

- قال الله تعالى: ﴿... وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾[2]. تتحدّث الآية السابقة عن العمل الصالح السابق على النصر، وأمّا هاتان الآيتان فإنّهما تتحدّثان عن نصر الله لمن ينصره، ولكنّهما تقيّدان ذلك بما بعد النصر وتشترطان في هؤلاء الذين يدّعون الإيمان ويطلبون من الله النصر والتمكين أن يحافظوا على الصفات التي أهّلتهم لنيل النصر، وإلا فلن ينال النصر من الله من يضيّع ما أمره الله به. ولو فُرِض وحصل مثل هذا الأمر فإنّ الله يهدّد هؤلاء بالاستبدال بمن هو أهلٌ لأن يخصّه الله بنصره وتمكينه[3].
- قال الله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا﴾[4].
- قال الله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ أَقَامُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡۚ﴾[5]، تشترك هاتان الآيتان في نكتة واحدة هي الوعد بفيض النعم الإلهيّة على بعض الناس لو أنّهم استقاموا على الشريعة التي شرّعها الله لهم، وأقاموا حدود الكتب السماويّة التي أتاهم بها أنبياؤهم. ووجه الربط بين هاتين الآيتين وبين النصر أنّ هذا الأخير نعمة من النعم الإلهيّة، وبناء على قاعدة «**حكم الأمثال في ما يجوز وما لا يجوز واحد**»، يمكن تعميم هذا الحكم من نعمة الأكل والشرب إلى غيرها من النعم كالنصر.

(1) سورة النور، الآية 55.
(2) سورة الحج، الآيتان 40 و41.
(3) انظر: سورة الأنعام، الآية 6. ولنا عودة إلى هذا الأمر لاحقًا.
(4) سورة الجنّ، الآية 16.
(5) سورة المائدة، الآية 66.

الصبر والثبات

الربط بين الصبر والنصر من الأمور الواضحة التي يدركها الإنسان بالوجدان، فمن لا يصبر على تحمّل التضحيات لا يمكن أن ينال ما يريد. وقد التفت الإنسان بحسّه الفطريّ وتجاربه العاديّة إلى مثل هذا الأمر، وامتلأ الشعر الحكميّ والأدب وكتب الأخلاق على وجه العموم بالحديث عن الصبر وتأثيره في وصول الإنسان إلى ما يبتغيه. يقول الشاعر و«إنّ من الشعر لحكمة»: «لا بدّ دون الشهد من إبر النحل». ومن الحكم المشهورة في الأدبيات الإسلامية قولهم: «من صبر ظفر فاصبر تظفر». وقد تعرّضت السنّة لهذا الربط وورد في بعض الأخبار والأحاديث ما يكشف عن الربط بين الأمرين، ومن ذلك: ما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**لا يعدم الصبور الظفر، وإن طال به الزمن**»[1]. وقد اشتهر على الألسن نسبة قولٍ إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم هو: «**إنما النصر صبر ساعة**». ولكن يبدو بعد البحث والتحقيق أنّ النسبة غير صحيحة؛ ولكن لا تبعد صحّة المضمون. ومن الآيات التي تؤكّد هذا المعنى وتصدّقه:

- قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾[2]. وجه دلالة الآية على الربط بين الصبر والنصر أنّ الله يعد المؤمنين بالفلاح ويرجّيهم إيّاه إن هم حقّقوا الشرط وهو الصبر والثبات.
- قال الله تعالى: ﴿ وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[3]. وردت هذه الآية في سياق الحديث عن الجهاد والقتال في سبيل الله، وختمت ببشارة الصابرين. والأقرب في مضمون هذه

(1) نهج البلاغة، باب الحكم، ج 4، الحكمة 153.
(2) سورة آل عمران، الآية 200.
(3) سورة البقرة، الآية 155.

البشارة والأكثر انسجامًا مع سياق الآيات الكريمة[1] أن يكون النصر والظفر ونيل ما يسعون في سبيل الحصول عليه: «أعاد ذكر الصابرين ليبشّرهم... فأمر تعالى نبيّه أوّلًا بتبشيرهم، ولم يذكر متعلّق البشارة لتفخيم أمره فإنّها من الله سبحانه فلا تكون إلا خيرًا وجميلًا. وقد ضمنها ربّ العزّة»[2].

- قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[3]. وهذه الآية كسابقتها تدعو إلى الاستعانة بالصبر لنيل المبتغيات، وهي عامّة ولو شكّك أحدٌ في عمومها فإنّه يكفي للربط بين الصبر والنصر قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ ومن كان الله معه ومحيطًا به إحاطة قيوميّة على حدّ تعبير أحد المفسّرين لن يكون إلا منتصرًا.

التوكّل

التوكّل على الله تعالى من الفضائل الأخلاقيّة في منظومة القيم الأخلاقيّة الإسلامية. وهذا الأمر لا يخفى على من له أدنى اطّلاع على الأخلاق الإسلاميّة. وما يعنينا هنا هو الكشف عن الصلة بين التوكّل على الله وبين النصر.

- يقول الله عزّ وجلّ في كتابه الكريم: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦۚ ﴾[4]. حسبه أي يكفيه ويغنيه عمّا ومن سواه. تقرّر هذه الآية مبدأً عامًّا هو أنّ التوكّل على الله تعالى يجعل الإنسان في غنًى عن سواه. ومن الأمور التي ينبغي التوكّل على الله تعالى فيها وقطع الطمع في غيره الحرب والقتال وخاصّةً عندما يكون القتال في سبيل الله.
- قال الله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ وَعَلَى ٱللَّهِ

(1) خاصّة أنّ هذه الآيات الخمس (153–157) من سورة البقرة لها سياق واحد كما يرى بعض المفسرين. انظر: الميزان في تفسير القرآن، ج 1، ص 343.
(2) الميزان في تفسير القرآن، ج 1، ص 353.
(3) سورة البقرة، الآية 153.
(4) سورة الطلاق، الآية 3.

فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ﴾[1]. ودلالة هاتين الآيتين أوضح من دلالة سابقتهما وذلك أنّ الآية الأولى منهما تتحدّث عن الاقتراب من الفشل وإظهار العجز، ثم تدعو المؤمنين إلى التوكّل على الله. وتشير الآية الثانية إلى النصر الذي أحرزه المسلمون في بدرٍ، ولهذا السياق دلالته على الربط بين التوكّل والصبر.

- قال الله تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[2]. هذه الآية تقلب المشهد ولكنّها لا تعدم الدلالة على الربط بين الأمرين، فإنّها بدل أن تدعو إلى التوكّل طلبًا للنصر، تدعو إلى التوكّل بالاعتماد على مبدإٍ عامٍّ وحقيقة كونية كبرى هي حقيقة أنّ من ينصره الله فلن يُغلب، ومن يخذله الله فلن يذوق طعم النصر، وتبني على هذه الحقيقة المؤكّدة الدعوة إلى فضيلة التوكّل والاعتماد على الله تعالى.

وبكلمة عامّةٍ التوكّل على الله يرفع منسوب الثقة ويشدّ العزيمة فمن يرَ الله ظهيرًا له ومعتمدًا، يكنْ أقدر على اتّخاذ المواقف الحاسمة في الأوقات الصعبة. ومن المعلوم أنّ كثيرًا من الهزائم التاريخيّة سببها ضعف في اتّخاذ القرار في الوقت المناسب، وكثيرًا من الانتصارات سببها ارتفاع منسوب الثقة بالمستند والمعتمد، وأيّ رهانٍ يمكن أن يكون أقوى من الرهان على الله والاستناد إلى ما عنده؟

(1) سورة آل عمران، الآيتان 122 و 123.
(2) سورة آل عمران، الآية 160.

وقفة تأمّلية

«اصمدوا فإنّ الحقّ معكم والنصر لكم».

كلمة الإمام القائد الخامنئي دام ظله في أهالي قم في شهر محرّم/ 2010/01/09م.

«عـزّزوا ثقتكم بالله الحكيم القدير وآمنـوا بقدراتكم وزيدوها. وتيقّنوا من النصر النهائي واعلموا أنّه: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[1].

الإمام الخامنئي دام ظله، نداء بتاريخ2010/06/01

«واعلمـوا أنّ الجهـاد في سبيل الله وعد إلهي بالنصـر؛ فعندما تتحرّكون لله وفي سبيل الله ستصلون إلى النصر».

الإمام الخامنئي دام ظله: مع مسؤولي في الجمهورية الإسلامية، 2011/03/28 م.

«طبعاً لا يمكن الانتصار من دون جهاد وتحرّك وتقبّل للأخطار. لم يَعِد الله تعالى أحداً بالنصر من دون تحرّك. ولا يكفي لذلك مجرّد أن يكون المرء مؤمناً متديّناً، بل لا بدّ من الجهاد والصبـر. ﴿وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَاۚ﴾[2]، هـذا كلام الأنبياء لمعارضيهم... إنّنـا نصمد ونقـاوم، لقد صمد الأنبيـاء والرسل عليهم السلام، ومنطـق الأنبياء اليوم رغم كل ما تعرّضوا له من القمع هو المنطق الشائع في العالم. لقد انتشر كلام الأنبياء ولـم ينتشر منطق الفراعنة. وهذه المسيرة وهـذه التوجّهات سوف تزداد يوماً بعد يوم. لا بـدّ من الصبر والصمود. لقـد أظهر شعبنا من نفسه هذا الصمود والثبات. وأعداؤنا لا يريدون أن يفهموا ويستفيدوا من التجارب الماضية. يجب أن يعلموا أنّ العناد والتكبّر وجنون العظمة مقابل هذا الشعب وتوقّع أمور في غير محلّها منه لن يجدي أيّ نفع. هذا الشعب واقف ثابت وقد عرف الطريق والهدف وعرف نفسه».

الإمام الخامنئي دام ظله: كلمته في ذكرى البعثة النبوية/2012/6/18م.

(1) سورة الحج، الآية 40.
(2) سورة إبراهيم، الآية 12.

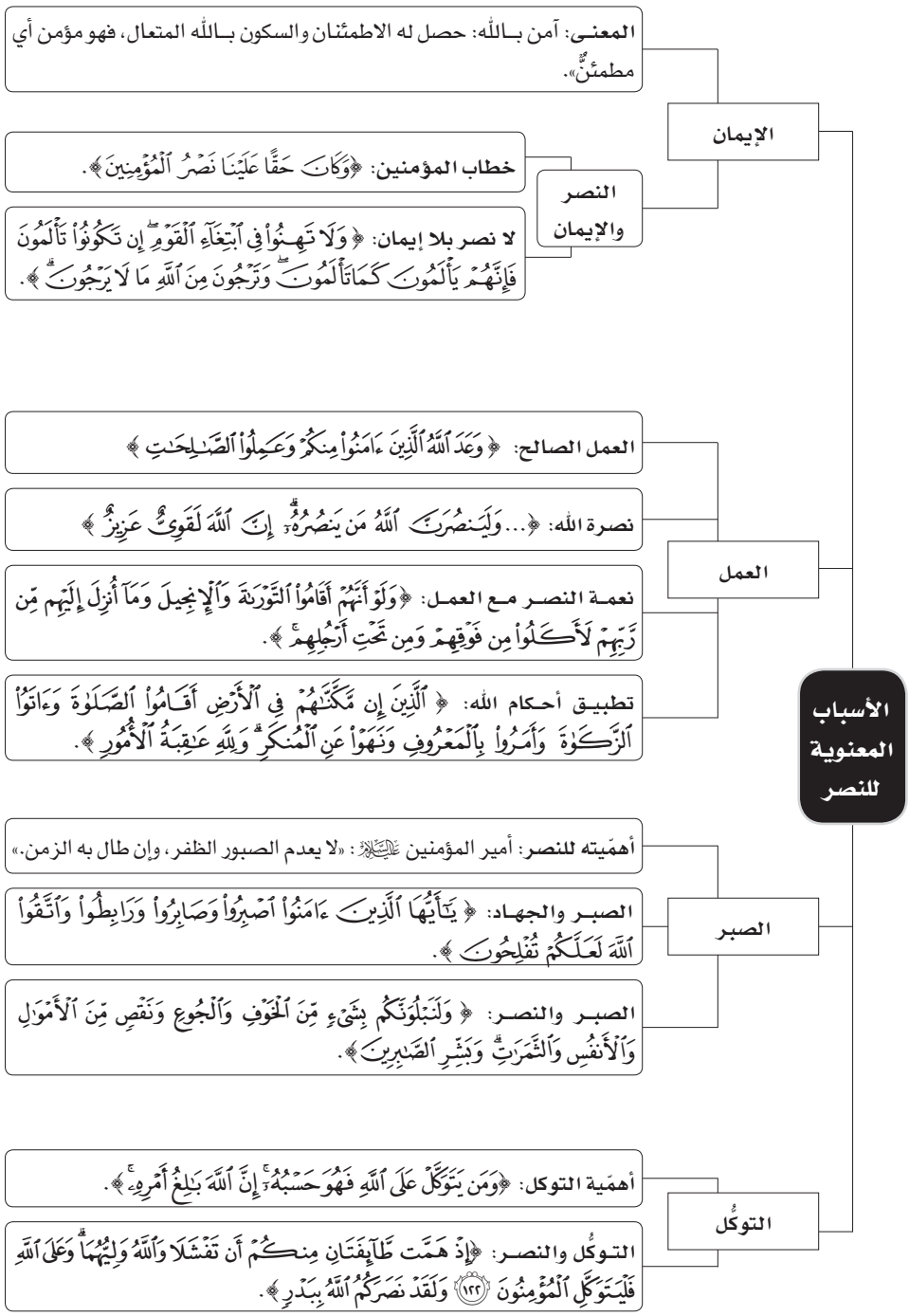
الأسباب المعنوية للنصر
الإيمان
المعنى: آمن بالله: حصل له الاطمئنان والسكون بالله المتعال، فهو مؤمن أي مطمئنٌّ».
النصر والإيمان
خطاب المؤمنين: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.
لا نصر بلا إيمان: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ﴾.
العمل
العمل الصالح: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾
نصرة الله: ﴿... وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾
نعمة النصر مع العمل: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ۚ﴾.
تطبيق أحكام الله: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾.
الصبر
أهمّيته للنصر: أمير المؤمنين عليه السلام: «لا يعدم الصبور الظفر، وإن طال به الزمن.»
الصبر والجهاد: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.
الصبر والنصر: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.
التوكُّل
أهمّية التوكل: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ﴾.
التوكُّل والنصر: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ﴾.

9

النصر والمدد الغيبيّ

مفاهيم محورية:

- **شروط المدد الإلهيّ وأنواعه.**
  (1) السكينة.
  (2) قذف الرعب في قلوب الكفّار والأعداء.
  (3) تثبيت الأقدام.
  (4) إنزال الملائكة.
  (5) الريح والمطر.
- **وصية الأمير عليه السلام حول النصر.**

موعظة قرآنية

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾[1].

مقدّمة

إنّ انتصار أهل الحقّ في مواجهتهم للباطل مرهون بالإذن والتسديد والمدد الربّاني. والمدد الإلهيّ عبارة عن مساعدة وواسطة خفيّ في النصر، والتي تعتبر من العوامل الإلهية والغيبية المهمّة في تحقيق النصر للمسلمين. فالنصر الحقيقيّ، أسبابه وحصوله إنّما هو إلهيّ المنشأ أولاً وآخراً. لذلك يجب على المجاهدين أن لا يتوجّهوا بقلوبهم وتعلّقاتهم إلى غير الله تعالى. وهذه النكتة أكّد عليها القرآن الكريم في موارد مختلفة، وكان هذا التأكيد لأجل أن لا ينسى الناس أصل التوحيد، وأن يبقى راسخاً في أذهانهم مبدأ: (لا مؤثّر في الوجود إلّا الله).

ففي الحرب لا مؤثّر حقيقيّ غير الذات الإلهية المقدسة، أما الملائكة وغيرها من التسديدات الإلهية فلا يعملون إلا بأمر من الله عزّ وجلّ، ولا استقلال لهم في شيء لا في نصر المسلمين، ولا في أيّ أمر آخر، إذ إنّ كلّ الأمور حقيقة هي بيد الله تعالى، وتسير بأمره تبارك وتعالى.

---

(1) سورة محمد، الآية 7.

شروط المدد الإلهيّ وأنواعه

وهـذه الإمدادات الغيبيـة والتسديدات الإلهيـة للمجاهدين أثنـاء جهادهم ضدّ الأعداء مشروطة بشرطين كليين:

أوّلاً: العمل على الاستفادة من كل قدراتهم المتاحة بين أيديهم في ساحة العمل.

ثانياً: انتظـار المدد الغيبـيّ الإلهيّ والمساعـدة الربّانية، في حـال لم تفِ تلك القـدرات والطاقـات الظاهرية فـي رفع حاجـة المسلمين ومشكلتهـم، لأنه في تلك الحالـة سوف يضع الله تعالى تلـك الطرق والأساليب الغيبية في خدمة المجاهدين، وذلك حسب ما تقتضيه الحكمة الإلهية والحاجة الفعلية.

وهذه النتيجة قد أيّدها القرآن الكريم حيث تحدّث بعض الآيات الشريفة، عن أنّ الإمدادات الغيبية الإلهية ليست مطلقةً بل لها شروطُها وظروفها،

ويمكن أن نصنّف المدد الإلهيّ إلى نوعين؛ معنويّ وماديّ. وفي هذا المقام يُطرح سـؤال عـن ماهية هذه الإمـدادات والتسديـدات الإلهية، وطرق تحققهـا. وللإجابة عـن هذا السؤال، سنقـوم بالتحقيق في الآيات الواردة في القـرآن الكريم حول هذا الموضوع. يمكننا تقسيم الإمدادات الغيبية والتسديدات الإلهية إلى عدّة أنواع:

السكينة

السكينـة من صفات النفس الإنسانيّة التـي وردت الإشارة إليها مـرّاتٍ عدّة في القـرآن الكريـم، في بعض الأحيـان بطريقةٍ مباشرة، وفي بعض الأحيان من خلال الإشـارة إلى النعاس الذي يصيـب المؤمنين في ساحة الحـرب ويجعلهم كأنّهم في فراشهـم وتحت سقـوف بيوتهم. وتكتمل الصـورة عندما تقتـرن السكينة في قلوب المؤمنين بالخوف الذي يقذفه الله في قلوب جنود العدوّ.

- قال الله تعالى: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا ۝٣ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ

لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾[1]. تحدّثنا هاتان الآيتان عن النصر الذي منّ الله به على النبيّ ﷺ ثمّ تذكر أمرًا يظهر أنّه بمثابة السبب الذي يؤدّي إلى مضاعفة الإيمان وزيادته وهو السكينة التي نزلت على قلوب المؤمنين فزادت إيمانهم، وسمحت لهم ولقائدهم بالنصر وليس أي نصر بل ذلك النصر الذي يصفه الله بأنّه عزيز، أبهر الأعداء وجعلهم ييأسون من التفكير في طلب ثاراتهم القديمة التي هي الذنوب التي تقدّمت وتأخّرت كما يرى عددٌ من المفسّرين.

- قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾[2]. محور هذه الآية الحديث عن المسلمين الذين بايعوا رسول الله ﷺ في الحديبية قبل فتح مكّة بقليل من الزمان، ودلالة الآية واضحة على أنّ هذه السكينة التي غمرت قلوب المسلمين المبايعين هي التي ولّدت النصر وجعلته ثوابًا قريبًا لأهل السكينة والاطمئنان إلى خيارات رسول الله ﷺ.

قذف الرعب في قلوب الكفّار والأعداء

واحدة من طرق الإمداد الباطنيّ والروحيّ التي ينصر الله تعالى بها أهل الحقّ ويهزم بها أهل الباطل هي: إلقاء الرعب وإيجاد الخوف في قلوب الكفّار والمشركين، بمعنى أن يُسيطر الرعب والخوف على نفوس الكفّار في ميدان المعركة، ما يصيبهم بالاضطراب والقلق بحيث يفقدون القدرة على البقاء في الميدان. وهذا الانهزام النفسيّ يؤدّي إلى عدم الثبات في مواجهة المسلمين، فيُفضّلون الفرار والانهزام على الالتحام مع أهل الحقّ.

لقد ذُكر هذا العامل المهمّ والمدد الروحيّ في أربعة موارد من القرآن الكريم بشكلٍ مؤكّدٍ وقاطع.

(1) سورة الفتح، الآيتان 3 و 4.
(2) سورة الفتح، الآية 18.

ففـي موردين يَعِد الله المسلمين بأنّه سوف يُرعِب قلـوب أعدائهم أثناء المعركة لسلب الشجاعة والجرأة منهم على قتال وحرب المسلمين.

وفي موردين آخرين تتحدَّث الآيات الشّريفة عن إرعاب وتخويفٍ مُسبَق للأعداء ليكون ذلك عاملاً مساعداً لغلبة المسلمين. ونكتفي هنا بالمرور على الآيات القرآنية مروراً سريعاً:

يقول الله تعالى ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾[1].

وفـي آية أخـرى يُبيّن الله تعالـى عامل انتصـار المسلمين بهـذه الصورة، حيث يقـول تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾[2].

التصرّف بالنفوس

هنـاك طريـقٌ آخر من طرق الإمـداد الغيبيّ الباطنيّ، وهو عبـارة عن التصرّف الإلهيّ في نفوس المؤمنين، فيجعل أعداد الكفار في نظرهم قلّة، وقدراتهم ضعيفة حتّى لا يخاف المؤمنون من مظاهر القوّة والقدرة عند العدوّ فيهابوا ويتراجعوا.

ومن جهة أخرى، يتصرف الله في نفوس الكافرين فيجعلهم ينظرون باستخفاف إلى معسكـر المسلمين ويعدّون جيش الإسلام قلّة وضعفـاء، وهذا الاستخفاف يؤثّر في خطـط الأعداء الحربية، من عـدم نقل السلاح والتجهيـزات الكاملة إلى ساحة المعركة وعدم إحضار كلّ الجيش إلى ميدان الحرب، وهذا ما يُوقعهم في سوء تقديرٍ لعـدد الجيش الإسلامي وقدراتـه الحقيقية ممّـا يجرُّهم في النهاية إلـى الخسارة والهزيمة.

(1) سورة آل عمران، الآية 151.
(2) سورة الأنفال، الآية 12.

وحول هـذا الموضـوع يقـول الله تعالـى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾[1].

تثبيت الأقدام

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[2].

هـذه الآيـة الكريمة تحثّ المؤمنيـن على جهاد أعداء الحـقّ، وترغّبهم في ذلك. وليس التأكيد على مسألة «**الإيمان**» في الآية إلّا إشارة إلى أنّ إحدى علامات الإيمان الحقيقـيّ هـي جهاد أعـداء الحقّ والديـن. فعلى المؤمنيـن أن ينصـروا دين الله، وهـذا تكليف وواجب ملقى علـى أعناقهم. ومع أنّ قـدرة اللّه سبحانه غير محدودة، ولا قيمـة لقـدرة المخلوقات حيال قدرته، غيـر أنّه يعبّر بنصـرة اللّه ليوضح أهميّة الجهـاد والدفـاع عن دين اللّه. وهو تعالى يعدهم في حـال أدّوا تكليفهم فإنه سيكون معهم يؤيّدهم ويسدّدهم وينصرهم، بأن يلقي في قلوبهم نور الإيمان، وفي أرواحهم التقـوى، وفي إرادتهـم القـوّة والتصميم أكثر، وفـي أفكارهم الهـدوء والاطمئنان. ويرسل الملائكـة لمدّهم ونصرتهم، ويغيّر مسار الحوادث لصالحهم، ويجعل أفئدة النـاس تهوي إليهم، ويجعل كلماتهم نافذة في القلوب، ويصيّر نشاطاتهم وجهودهم مثمـرة وذات فائـدة الخ. ولكن من بيـن كلّ أشكال النصرة يؤكّـد تعالى على مسألة تثبيـت الأقدام، وذلك لأنّ الثبات أمام العدو يعتبر أهمّ رمز للانتصار، وإنّما يكسب الحـرب الذين يصمـدون ويستقيمون أكثر. لذا كان دعاء طالـوت ومن بقي معه من المؤمنيـن على قلّتهـم عند ملاقاتهم لجيش جالوت القـويّ والكبير: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ

(1) سورة الأنفال، الآيتان 43 و 44.
(2) سورة محمد، الآية 7.

عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾[1]. فأيّدهم الله بالنصر المؤزّر على العدوّ لثبات أقدامهم عند المواجهة.

إنزال الملائكة

في معركة الحقّ والباطل يسقط بعض الحدود بين عالم الطبيعة وعالم ما فوقها، وإذا سخّر الإنسان الطبيعيّ نفسه في خدمة الأهداف الإلهيّة العليا، والقيم السامية النبيلة، سخّر الله له مخلوقات ما فوق الطبيعة وجعلها تدافع عنه وتؤيّده. وقد حدّثنا القرآن مرّات عدّة عن تأييد الله المؤمنين في عصر رسول الله ﷺ بالملائكة، ومن ذلك هذه الآيات: ﴿ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ الْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾[2].

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾[3].

ويقول عزّ وجلّ في آية أخرى في السياق نفسه: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى الْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا۟ الرُّعْبَ ﴾[4]. نعم ربّما يكون مستهجنًا الحديث عن الغيب والغيبيّات في عالم العسكر وفي عصر تحوّلت فيها المادّة إلى إله يعبد من دون الله، هذا ولكنّ الفكر الذي يستند إلى الوحي ويجعل منه الركن الأساس إلى جانب العقل أو قبله أو بعده ولكنّه لا يركن إلى الإيمان دون عقلٍ ولا إلى العقل دون إيمان، لا يمكنه أن يستبعد مثل هذه الأمور لا في عصر رسول الله ﷺ ولا في غير عصره، فالوحي دلّ على مثل هذا التأييد ولم ينفِ حصوله في سائر العصور إذا صدقت النوايا وتشابهت الظروف. والعقل أقصى ما يمكنه فعله هو السكوت وقول لا طاقة لي به، فليس ثمّة دليلٌ عقليٌّ يحكم باستحالة مثل

(1) سورة البقرة، الآية 250.
(2) سورة آل عمران، الآية 125.
(3) سورة الأنفال، الآية 9.
(4) سورة الأنفال، الآية 12.

هـذا التأييد الغيبيّ، إن لم نقـل إنّ العقل قد يحكم بضرورة مثل هذا الأمر في بعض الظـروف الخاصّة من باب اللطف الذي هو مفهوم كلاميٌّ تقتضيه صفات الله تعالى وحكمته وعدله.

الريح والمطر

إذا أراد الله أمـرًا سخّـر لـه كلّ ما خلق مـن مظاهر الطبيعة ومـا وراءها. وممّا سخّره الله تعالى في خدمة معسكر المؤمنين الرياح والمطر. وقد أشرنا من قبل إلى المطـر الذي كان لـه دور في تثبيت إيمان المسلمين في معركـة وقيل في دور المطر إنّه كان لرفع وسوسة الشيطان وتشكيك المسلمين في دينهم وأنّهم يصلّون وهم على جنابـة والماء تحت يـد المشركين. وقيل إنّ مخيّم المسلمين كان في أرض ذات رمل لا تثبـت فيها الأقدام فأنزل الله المطر لترطيب هذه الأرض وتثبيت مواقع أقدامهم. وأيًّـا يكن فإنّ الآية المشـار إليها تدلّ على تسخير الله تعالـى المطر وهو مظهر من مظاهر خلق الله في الطبيعة في خدمة الأهداف والغايات الحربيّة للمسلمين.

وأمـا الريح فهي من جنـود الله التي يسخّرها في خدمة كثيـرٍ من أغراض، فهي وسيلـة العـذاب علـى بعض الأقـوام السابقة، وهي مـن الجنود التي تشـارك جنوده المؤمنين في مواجهـة أعدائه، يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ﴾[1].

ومـن العوامل الطبيعية للمدد الإلهـيّ والتي أشير إليها في القرآن الكريم المطر، ففـي إحدى الآيـات الشريفة تحدث القرآن حول هـذا الموضوع قائلاً: ﴿إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةٗ مِّنۡهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ وَلِيَرۡبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمۡ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلۡأَقۡدَامَ﴾[2].

(1) سورة الأحزاب، الآية 9.
(2) سورة الأنفال، الآية 11.

إنّ هـذه الآية تشير إلى أحداث معركـة بدر، ففي الليلة التي سبقت المعركة أنزل الله مطـر رحمته ما جعل الأرض تحت أقدام جيش الإسلام سهلة رطبة فسهّلت لهم طريقة الحركـة والتنقل في الأرض وإجراء المنـاورات اللازمة في الميدان، إضافة إلـى التخلّص من آثـار الغبار والتراب التي تعيق الحركة أثنـاء القتال وتعمي الأعين وتضرّ بالرؤية البصرية.

أما في معسكـر الكافرين فقد كان المطر شديداً، ما جعل الأرض تحت أقدامهم موحلـة غيـر مستقرة، فأعاق حركتهـم ومناورتهم العسكريـة، وكان ذلك عاملاً في هزيمتهم.

إن هـذا المطر كان للمسلمين نوع إمداد غيبيّ ورحمة إلهية، ليصبح المجاهدون أكثـر فعاليـة ونشاطاً وأشـدّ حماسة وثباتـاً، وكان سبب رحمةٍ خاصـة لهم من جهة تحصيـل الطهارة والنظافة الظاهرية والروحيـة وتأمين مياه الشرب وغير ذلك من النعم، وكل ذلك بفضل هذا المدد الإلهيّ.

وصية الأمير عليه السلام حول النصر

من حسن الختام نقل كلامِ مَن كلامُه دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوق أمير المؤمنيـن عليه السلام، في وصيّة لابنه محمد ابن الحنفيّة عندما أعطاه الراية في إحدى معاركه فأوصاه بمجموعة وصايا جلّها مقتبس من الآيات المشار إليها أعلاه: «**تَزُولُ الْجِبالُ وَلا تَزُلْ! عَضَّ عَلَى ناجِذِكَ، أَعِرِ اللهَ جُمْجُمَتَكَ، تِدْ فِي الأَرْضِ قَدَمَكَ، ارْمِ بِبَصَرِكَ أَقْصَى الْقَوْمِ، وَغُضَّ بَصَرَكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مِنْ عِنْدِ اللهِ سُبْحانَهُ**»[1].

(1) نهج البلاغة، قسم الخطب، الخطبة 11.

وقفة تأمّلية

كما أنّ النصرة الإلهية لكم أنتم الذين تجاهدون وتناضلون لا تختصّ بالآخرة. في هذه الآية... تقول الملائكة: ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾[1]، إذن، ليست المسألة في الآخرة فقط، بل في الدنيا أيضاً تعمل ملائكة الله وقواه المعنويّة على مدّ يد العون للذين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾[2].

ونحن نُشاهد عونهم في الدنيا بأعيننا. ملائكة الله أعانونا نحن أيضاً في ثمانية أعوام من الدفاع المقدّس. وقد شاهدنا هذا العون بأعيننا. قد لا يُصدّق ذلك الإنسان الغارق في المادّيّات، دعه لا يُصدّق. نحن شاهدنا هذا العون. واليوم أيضاً تُساعدنا ملائكة الله، ونحن واقفون وصامدون بفضل العون الإلهيّ. قوّتنا العسكرية لا تقبل المقارنة بأمريكا. وقدراتنا الاقتصادية وإمكاناتنا المالية والإعلامية وامتداد نشاطنا السياسيّ لا يقبل المقارنة بأمريكا. ومع ذلك فنحن أقوى من أمريكا، مع أنّها أكثر مالاً وسلاحاً وأقوى إعلاماً وإمكانيّاتها المالية والسياسية أكثر، لكنّها أضعف ونحن أقوى. والدليل على قوّتنا هو أنّ أمريكا تراجعت خطوة خطوة في كلّ الميادين التي حصلت فيها مواجهة بيننا وبينها. نحن لا نتراجع بل نتقدّم إلى الأمام. هذا هو الدليل والمؤشّر، وهو ببركة الإسلام وبفضل العون الإلهيّ ومساعدة ملائكة الله.

الإمام الخامنئي دام ظله: كلمته في ملتقى غزة/ طهران/ 2010/2/27م

(1) سورة فصلت، الآية 31.

(2) سورة فصلت، الآية 30.

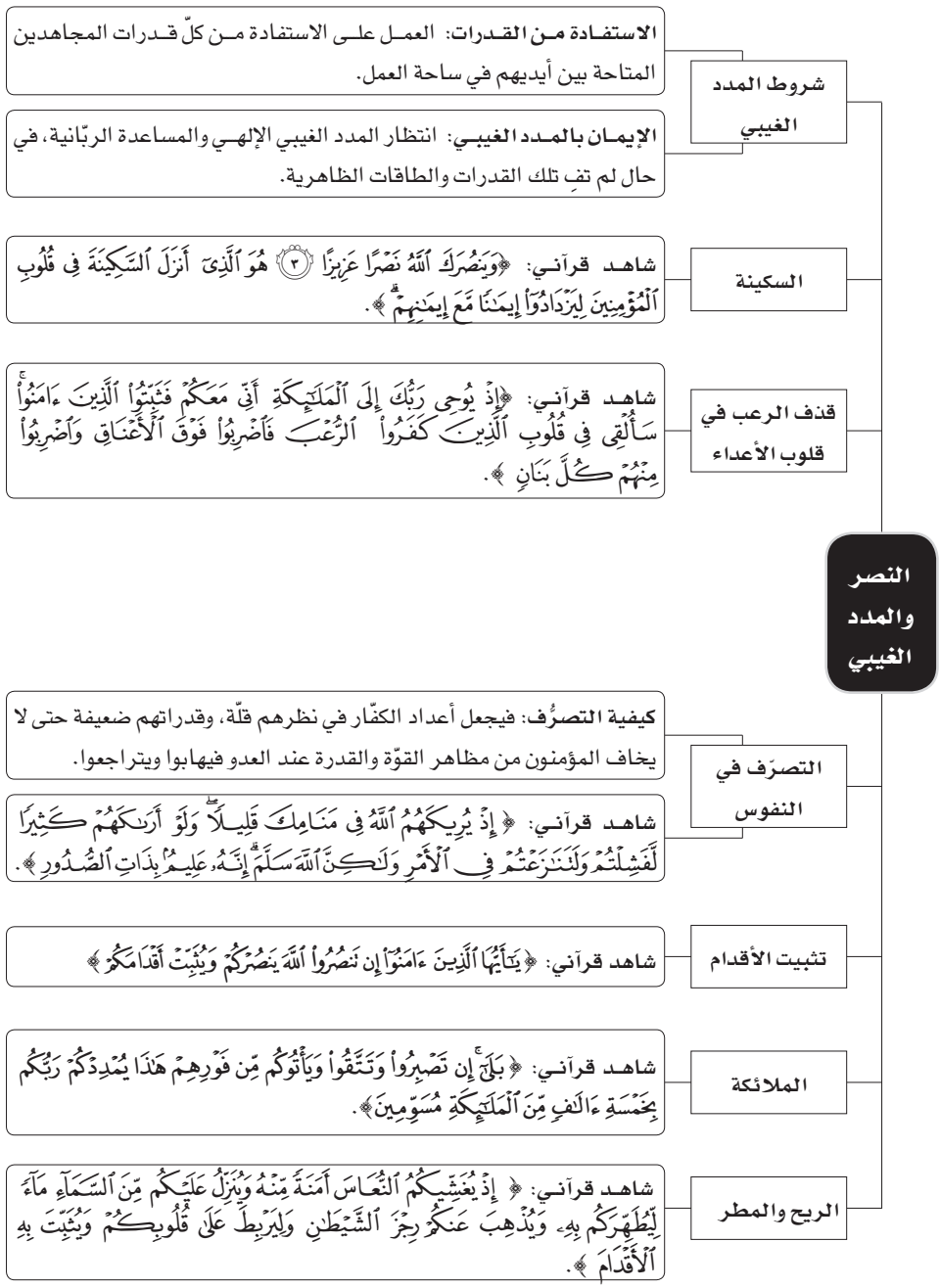
النصر والمدد الغيبي
شروط المدد الغيبي
الاستفادة من القدرات: العمل على الاستفادة من كلّ قدرات المجاهدين المتاحة بين أيديهم في ساحة العمل.
الإيمان بالمدد الغيبي: انتظار المدد الغيبي الإلهي والمساعدة الربّانية، في حال لم تفِ تلك القدرات والطاقات الظاهرية.
السكينة
شاهد قرآني: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا ۝٣ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡ﴾.
قذف الرعب في قلوب الأعداء
شاهد قرآني: ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ﴾.
التصرّف في النفوس
كيفية التصرُّف: فيجعل أعداد الكفّار في نظرهم قلّة، وقدراتهم ضعيفة حتى لا يخاف المؤمنون من مظاهر القوّة والقدرة عند العدو فيهابوا ويتراجعوا.
شاهد قرآني: ﴿إِذۡ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلٗاۖ وَلَوۡ أَرَىٰكَهُمۡ كَثِيرٗا لَّفَشِلۡتُمۡ وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.
تثبيت الأقدام
شاهد قرآني: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾
الملائكة
شاهد قرآني: ﴿بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾.
الريح والمطر
شاهد قرآني: ﴿إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةٗ مِّنۡهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ وَلِيَرۡبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمۡ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلۡأَقۡدَامَ﴾.

10

موانع النصر

مفاهيم محورية:

- التنازع والفرقة.
- المعصية ومخالفة الأوامر.
- تولّي غير الله.
- انقلاب القيم.
- تسريب الأسرار.
- إلقاء السلاح وترك الحذر.

موعظة قرآنية

﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾[1].

مقدّمة

لا تؤثّـر العلّـة أثرهـا، ولا ينتج السبب مسبّبـه إلّا إذا ارتفعت الموانـع. فالبناء لا يعلـو بجهد البنّـاء وحده بل بكفّ الهادميـن عن التخريب والهـدم. والدواء لا يشفي إذا لـم يقترن بالحمية في الأمراض التي تحتاج إلى حمية. وعلى هذا المنوال تجري أمور كالنصر. فالنصر له أسبابه المتقدّمة المشار إليها آنفًا؛ ولكن له أيضًا موانعه التـي تبطـل فاعليّة تلـك الأسباب وتحـول دون تأثيرها. وسوف نسيـر في بحثنا عن الموانـع سيرتنا في البحث عن الأسباب أي سنحـاول الاهتداء بهدي القرآن الكريم لنكتشـف موانع النصر ومبطـلات تلك الأسباب. ويمكن بكلمة عامّة أن نقول إنّ ضدّ الأسبـاب المتقدّمة يصبّ في الجهة المعاكسة للهدف الذي يدفع ذلك السبب نحوه. وكي لا نكرّر ما تقدّم نترك ملاحظة هذا الأمر إلى فطنة القارئ الكريم، ونيمّم شطر القرآن الكريم لنكتشف أسباب الهزيمة التي ورد النصّ فيها بشكلٍ مباشر.

---

(1) سورة الحج، الآيتان 40 و41.

التنازع والفرقة

الانسجام بين المجاهدين ووحدة هدفهم من الأمور المساعدة على النصر، والتفرقة وتوجّه بوصلة قلوب المقاتلين إلى جهات شتّى خطوة أولى نحو الهزيمة. وقد ذكر الله تعالى ذلك في أكثر من آية من كتابه عزّ وجلّ:

- قال الله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾[1].

والتنازع هو الاختلاف الذي يدبّ بين المجاهدين في سبيل الله لأسباب منها التنافس على المغانم أو المناصب. والملفت أنّ الآية تشير بوجهٍ خفيٍّ إلى أنّ التنازع لا يحصل عادةً في أوقات الشدّة والضعف وإنما يحصل في حالة القوّة والرخاء. ويستفاد هذا المعنى من تعليل النهي عن التنازع بالفشل وذهاب الريح أي القوّة. ويبدو بحسب بعض المفسّرين أنّ هذه الآية نزلت بعد معركة بدرٍ التي غيّرت صورة المسلمين عند أنفسهم وعند العدوّ.

المعصية ومخالفة الأوامر

وفي الآية المذكورة أعلاه أمر بطاعة النبيّ ﷺ قبل النهي عن التنازع المسبّب للفشل. وقد اهتدت البشريّة إلى مثل هذا الأمر بتجربتها أو ربّما بهدي الله عبر رسله السابقين. ومن هنا اشتهرت القاعدة العسكريّة المعروفة التي تقول للعسكر: «**نفّذ ثمّ اعترض**». وقد جرّب المسلمون في تاريخهم المعاصر لرسول الله ﷺ مثل هذا الأمر وذاقوا وبال مخالفتهم لأوامر قائدهم وتجرّعوا مرارة الهزيمة ولو إلى حين، وذلك عندما ترك الرماة في معركة أحد مواقعهم وانصرفوا إلى أمور أخرى كالسعي وراء نيل المغنم فكان ما كان ممّا سطّرته كتب السيرة.

(1) سورة الأنفال، الآية 46.

تولّي غير الله

- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا﴾[1]. تتحدّث هذه الآية عن مجموعة من المسلمين كانت تربطهم ببعض المنافقين علاقات صداقة ومودّة وكانوا يتّخذونهم بطانة أي أصحابًا مقرّبين رغبة في بعض المطامع. فلفت الله عزّ وجلّ نظرهم ونهاهم عن مثل هذا الأمر لأنّ المنافق لا يترك فرصة للوثوب على المؤمنين إلا واستغلّها لإفساد حالهم.
- قال الله تعالى: ﴿وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ فَلَمَّا تَرَٰٓءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾[2]. يناله إلا الخذلان في وقت هو أحوج ما يكون إلى ناصرٍ ومعين، وفي مثل هذه اللحظات يتخلّى عنه جاره ووليّه ويعلن براءته منه بطريقة ساخرة مدّعيًا أنه يخاف الله ربّ العالمين. وما يصدق على الشيطان وتولّيه يصدق على أتباع الشيطان وحزبه.

انقلاب القيم

تُبتلى بعض الجماعات البشريّة المخلصة في بعض حالات النصر بانقلاب في المفاهيم والقيم، وتنقلب من جماعات مظلومة إلى جماعات ظالمة، ومن جماعات زاهدة إلى مترفة... وفي مثل هذه الحالات فإنّ أوّل ما تخسره هذه الجماعة التي تُصاب بانقلاب القيم هو فقدانها النصر الذي حصلت عليه نتيجة صلتها بالله. ومن المعلوم أن «ليس بين الله وبين أحد قرابة»، فمن أعطى النصر

(1) سورة آل عمران، الآية 118.
(2) سورة الأنفال، الآية 48.

لمن يستحقّه يسلبه عمّن لا يستحقّه. يقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾[1]. الآية الأولى من هاتين الآيتين فيها وعدٌ بالنصر لمن يخلص النيّة ويشمّر عن ساعد الجدّ في سبيل الله وفي خدمة أهدافه. والقيد الذي يذكره الله عزّ وجلّ في الآية اللاحقة هو قيد عدم الانقلاب والتحوّل إلى جهة أخرى فإنّ الأمّة التي تستحقّ النصر هي الأمّة التي تبقى ثابتةً على الأهداف التي نهضت من أجل تحقيقها. وأمّا الأمّة التي تنقلب على عقبيها فلا تستحقّ دوام اللطف واستمرار الرعاية: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾[2].

تسريب الأسرار

الحرب خدعة وأسرار. وتسريب الأسرار العسكرية وكشف الخطط تؤدّيان إلى ارتفاع النصر حتى لو يخيّم فوق رأس الجيش المقاتل كائنًا من كان هذا الجيش وتحت أيّ رايةٍ كان يُقاتل، ما لم تُتّخذ التدابير المعاكسة التي تعيد الأمور إلى نصابها. وقد وردت في القرآن توصيات في هذا الشأن منها:

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ﴾[3]. تنهى هذه الآية عن بثّ الشائعات بين المجاهدين إذا كانت تترك آثارًا سلبيّة على روحيتهم سواء كانت تأمينًا لهم حيث لا ينبغي لهم الأمن وترك الحذر، أو كانت تخويفًا حيث ينبغي لهم أن

(1) سورة الحج، الآيتان 40 و 41.
(2) سورة الأنعام، الآية 6.
(3) سورة النساء، الآية 83.

يتّصفـوا بالسكينة والاطمئنان ليثبتوا في وجه العدوّ. ويوصي القرآن الكريم في مثل هـذه الحالات فيما لو وصل خبرٌ مّا إلى أذن أحد المسلمين أن ينقله إلى أهل الخبرة وقادة المعركة ليحسنوا التصرّف معه وتفسيره على النحو المطلوب.

إلقاء السلاح وترك الحذر

حالـة الحرب هـي حالة الحذر الدائم من غدر العدوّ فـي أيّ لحظة خاصّة مع عـدوٍّ لا يلتـزم بالمعاييـر الأخلاقيّة للقتال. وبالتالـي لا ينبغـي للمسلمين في أيّ معركـة أن يقيسوا العدوّ على أنفسهـم، ولا أخلاقه على أخلاقهم. ومن هنا كانت التوصية القرآنية الملفتة للمسلمين بأن لا يلقوا أسلحتهم حتّى في حالة الصلاة، وأن لا ينصرفـوا إلى الصـلاة والاشتغال بها جميعًا ما يعطـي للعدوّ فرصة للنيل منهـم: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾[1]. تفيد هذه الآية بتشريعها الصلاة بطريقة خاصّة تسمح للمسلمين بالتنـاوب في الصلاة خلف رسول الله ﷺ أنّـه لا ينبغي للمسلم أن يترك الحذر وأن ينشغل عن عدوّه حتّى بالصلاة وتدعوه كما في الآية اللاحقة إلى تأجيل إقامة الصـلاة وأدائها على النحو المتعـارف إلى وقتٍ تحصل له الطمأنينة. فإذا كانت الصلاة التي هي شعار المسلمين وعبادتهم الأثيرة تتأخّر أهميّة أدائها على النحو الأكمـل لمصلحة أهمّ هـي مصلحة مواجهة العدوّ فما بالك بغيرها من المكاسب والمصالح التي ربّما يفكّر المجاهدون في تحصيلها أو حفظها في ساحة القتال؟

(1) سورة النساء، الآية 102.

وقفة تأمّلية

عن مالك بن أعيـن قال: حرّض أمير المؤمنين عليه السلام الناس بصفّين فقال: «**إنّ الله عزّ وجلّ قد دلّكم على تجارة تُنجيكم من عذاب أليم، وتشفى[1] بكم على الخير الإيمـان بـالله، والجهاد في سبيل الله، وجعل ثوابه مغفـرة للذنب، ومساكن طيبة فـي جنّات عـدن، وقال جـلّ وعـزّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾[2] فسـوّوا صفوفكم كالبنيـان المرصوص فقدّموا الدارع[3]، وأخّـروا الحاسـر[4]، وعضّـوا علـى النواجـد[5]، فإنّـه أنبـى[6] للسيوف عـن الهام[7]، والتـووا علـى أطـراف الرماح، فإنّـه أمـور[8] للأسنة، وغضّـوا الأبصـار فإنّه أربط للجأش، وأسكـن للقلوب، وأميتوا الأصوات فإنّه أطـرد للفشل، وأولى بالوقار، ولا تميلـوا برایاتكـم ولا تزيلوها ولا تجعلوهـا إلا مع شجعانكم فـإنّ المانع للذمار[9] والصابـر عنـد نزول الحقائق هم أهل الحفـاظ، ولا تُمثّلوا بقتيل، وإذا وصلتم إلى رحال القوم فلا تهتكوا ستراً، ولا تدخلوا داراً، ولا تأخذوا شيئاً من أموالهم إلا ما وجدتم في عسكرهم، ولا تُهيّجوا امرأة بأذى وإن شتمن أعراضكم وسبين أمراءكم وصلحاءكـم فإنّهن ناقصات القوى والأنفس والعقول، وقد كنّا نؤمر بالكفّ عنهنّ وهنّ مشركات، وإن كان الرجل ليتناول المرأة فيعير بها وعقبه من بعده، واعلموا أنّ أهـل الحفـاظ هـم الذيـن يحتفـون برایاتهـم ويكتنفونها، ويصيـرون حفافيها**

(1) أشفى على الشيء: أشرف.
(2) سورة الصف، الآية 4.
(3) الدارع: لابس الدرع.
(4) الحاسر: الذي لا مغفر له ولا درع.
(5) النواجد: أقصى الأسنان والضواحك منها.
(6) أنبى: أي أبعد وأشدّ دفعاً.
(7) الهام: الرأس.
(8) أمور: يمور السنان أي يتحرّك عن موضعه.
(9) الذِمار: ما يلزم حفظه ورعايته.

وورائها وأمامها، ولا يضيّعونها لا يتأخّرون عنها فيسلموها، ولا يتقدّمون عليها فيفردوها، رحم الله امرءاً واسى أخاه بنفسه ولم يكل قرنه إلى أخيه فيجتمع عليه قرنه وقرن أخيه فيكتسب بذلك اللائمة، ويأتي بدناءة وكيف لا يكون كذلك وهو يقاتل الاثنين، وهذا ممسك يده قد خلى قرنه على أخيه هارباً منه ينظر إليه وهذا فمن يفعله يمقته الله، فلا تتعرّضوا لمقت الله فإنّ ممرّكم إلى الله، وقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1]، وأيم الله لئن فررتم من سيوف العاجلة لا تسلمون من سيف الآجلة، فاستعينوا بالصبر والصدق، فإنّما ينزل النصر بعد الصبر فجاهدوا في الله حقّ جهاده، ولا قوّة إلا بالله».

وسائل الشيعة، الحر العاملي، ج15، ص95.

(1) سورة الأحزاب، الآية 16.

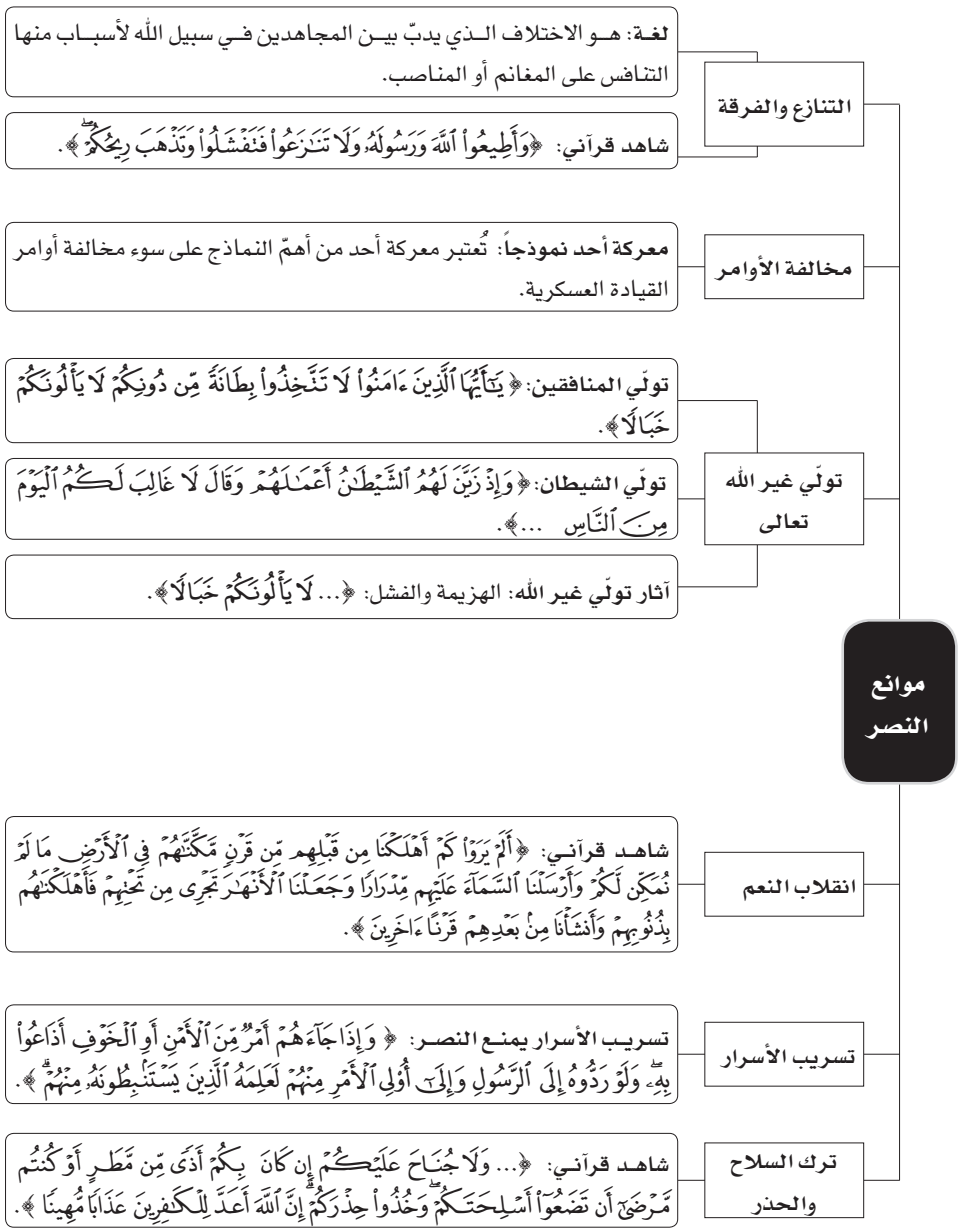
موانع النصر
التنازع والفرقة
لغة: هو الاختلاف الذي يدبّ بين المجاهدين في سبيل الله لأسباب منها التنافس على المغانم أو المناصب.
شاهد قرآني: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾.
مخالفة الأوامر
معركة أحد نموذجاً: تُعتبر معركة أحد من أهمّ النماذج على سوء مخالفة أوامر القيادة العسكرية.
تولّي غير الله تعالى
تولّي المنافقين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾.
تولّي الشيطان: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ ...﴾.
آثار تولّي غير الله: الهزيمة والفشل: ﴿... لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾.
انقلاب النعم
شاهد قرآني: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾.
تسريب الأسرار
تسريب الأسرار يمنع النصر: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾.
ترك السلاح والحذر
شاهد قرآني: ﴿... وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾.

11

السنن المرتبطة بالنصر(1)

سنّة التداول

مفاهيم محورية:

- النصر المشروط بالمبادرة.
- سنّة التداول.
- التداول في اللغة.
- التداول في القرآن الكريم.
- تحليل آية ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ﴾ والعبر المستفادة منها.
- شروط التداول وقيوده.

موعظة قرآنية

﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾[1].

مقدّمة

النصر كما تقدّم نعمة إلهيّة محكومة بمجموعة من الشروط. وهو سنّة وقانون إلهيّ. والحالة المعاكسة للنصر وهي الهزيمة تخضع أيضًا لقوانين تنطبق على من لا يوفّرون شروط النصر ولا يؤمّنون مقدّماته الضروريّة واللازمة. وإذا لم يتحقّق النصر فلا بدّ أن يتحقّق شيء آخر محلّه وهذا الشيء الآخر بدوره لا يحصل بالصدفة ودون قوانين تحكمه. ففي الكون الذي خلقه الله تعالى لا شيء يحصل صدفة: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾[2]. ويقول عزّ وجلّ: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾[3]؛ إذًا لا محلّ للفوضى والخلل في نظام الوجود الصادر عن الحكيم القادر والمقدّر.

---

(1) سورة آل عمران، الآية 140.

(2) سورة الحجر، الآية 21.

(3) سورة الفرقان، الآية 2.

النصر مشروط بالمبادرة

وبناء على هذا يضحي من الطبيعيّ أن نطرح السؤال الآتي: إذا لم يستفد الإنسان من سنّة النصر ولم يحقّق الشروط الواجب تحقّقها لنيله النصر وانطباق قوانينه عليه، فما هي السنّة أو السنن الأخرى التي تطلّ برأسها وتنطبق على الإنسان فتخضعه لها؟ وبعبارة أخرى: إحدى الصياغات القانونيّة التي عبّر بها عن النصر هي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾[1]. وهذه الجملة التي أخبرنا الله بمقتضاها عن النصر تدلّ على أنّ النصر مشروط بالمبادرة وبالنهوض بأعباء المسؤوليّة، فإذا لم يتوفّر الشرط، تصدق القاعدة التي يذكرها علماء الأصول عندما يقولون: «**المشروط عدمٌ عند عدم شرطه**». ومن هنا ينفتح باب البحث عن السنن والقوانين الأخرى التي تنطبق على الإنسان، ومن هذه السنن سنّتا: التداول، والاستبدال. وهذا ما سوف نبدأ بالحديث عنه فيما يأتي.

سنّة التداول

يمكن إثبات وجود مثل هذه السنّة من آيات عدّة من القرآن الكريم. سوف نعرض لها لاحقًا ولكن نبدأ أوّلًا بالحديث عن معنى التداول في اللغة وفي المصطلح القرآنيّ العامّ، ثمّ ندلف إلى البحث عن المعنى الذي تفيده الآية التي تقرّر سنّة التداول.

التداول في اللغة

المادّة الأصلية لهذه الكلمة هي الحروف الثلاثة الآتية: الدال والواو واللام. ومنها اشتُقّ عدد من الكلمات تحوي جميعًا هذا المعنى مع زيادات تتفاوت باختلاف الاشتقاق. تداول القومُ الشيءَ تداولًا هو حصوله في يد هذا تارةً وفي يد هذا أخرى... ودالت الأيّام تدول، مثل دارت تدور، وزنًا ومعنًى[2]. ويقول صاحب مقاييس

(1) سورة محمد، الآية 7.

(2) الفيومي، المصباح المنير، مادّة: «دول».

اللغـة: «دول أصـلان، أحدهما يدلّ على تحوّل شيء من مكان إلـى آخر، والآخر يدلّ علـى ضعفٍ واسترخاء. فأمّا الأول فقال أهل اللغة: اندال القوم إذا تحوّلوا من مكان إلـى مكان. ومـن هذا الباب تـداول القوم الشيء بينهـم: إذا صار مـن بعضهم إلى بعض. والدَّولة والدُّولة لغتان، وإنّما سُمّيا بذلك من قياس الباب؛ لأنّه أمرٌ يتداولونه فيتحوّل من هذا إلى ذاك ومن ذاك إلى هذا»[1]. ويقول صاحب المصطفوي: «الأصل الواحد في هذه المادّة هو الانتقال مع حصول تحوّل في الحالة والكيفيّة، وهذا الأصل لـه مصاديق: فمنها انتقال مال من مـورد إلى آخر، مع تغيّر فيه من جهة وأقلّه تبدّل مالكه. ومنها انتقال جند من مكان إلى مكان آخر للخصم مع تحوّل من جهة الغالبيّة والمغلوبيّة... ومنها انتقال النبت من مقام النضارة إلى مقام اليبس والجفاف...»[2].

وبنـاء على هـذا المعنى اللغـويّ يمكن تفسير التـداول في الساحـة الاجتماعيّة، بانتقـال الغلبـة والتفوّق من جماعة إنسانيّة إلى جماعـة أخرى وفق شروط وضوابط يمكن البحث عنها من زوايا عدّة، ووفق منهجيّات علميّة متنوّعة. وما يعنينا فعلًا هو البحث عنها من وجهة نظرٍ دينيّة قرآنيّة وحديثيّة.

التداول في القرآن الكريم

في القرآن الكريم آيات عدّة تفيد هذا المعنى بعضها أوضح من بعض وفيما يأتي أهمّ الآيات التي تفيد هذا المعنى:

- قال الله تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾[3].
- قال الله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن

(1) مقاييس اللغة، مادّة: «دول».
(2) التحقيق في كلمات القرآن، ج 3، ص 302-303.
(3) سورة آل عمران، الآية 140.

تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[1].

- قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾[2].

- قال الله تعالى: ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[3]. وغيرها من الآيات التي تتحدّث عن توريث الله الأرض ونقلها من أشخاص إلى آخرين ومن جماعة بشريّة إلى جماعة أخرى. ولنكتفِ بهذا المقدار من الآيات، على أن نتّخذ من الآية الأولى مثالًا نموذجيًّا لتحليله واستفادة الدروس والعبر المحيطة بسنّة التداول منها.

تحليل آية ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ ﴾ والعبر المستفادة منها

تشتمل الآية الكريمة على مجموعة من الدروس والعبر المستفادة يمكن استعراض أهمّها فيما يأتي:

- إنّ الله لا يضمن بقاء الأحوال على ما هي عليه لأحدٍ من الناس فالدنيا دار عمل وتضحية وليست دار نعيم مقيم، فالنعيم الدائم والخلود موطنه الآخرة فقط. أمّا الدنيا فهي دار عملٍ وعناءٍ. وبالتالي يتساوى المؤمنون وغيرهم في الخضوع للقوانين التي تحكم حركة المجتمعات الإنسانيّة.
- النصر والهزيمة ليس أيٌّ منهما قدرًا لازمًا، فإذا انتصر المسلمون عليهم أن لا يغترّوا بهذا النصر ولا يغفلوا عن قدرة الله على إدالة السلطة منهم إلى

(1) سورة آل عمران، الآية 26.
(2) سورة الحجّ، الآية 40.
(3) سورة الأعراف، الآية 128.

غيرهـم. وإذا انهزموا فعليهم أن يسمحوا لليأس بأن يعشّش في قلوبهم فالله قـادرٌ على تحويل موازين القوى مرّةً أخرى. وخاصّـةً أنّ سنّة التداول تقضي فـي نهاية المطاف بـأن يؤول الأمر إلـى انتصار الحقّ علـى الباطل وإن ربح الباطـل جولة من الجـولات: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾[1]. ومن هنا يلفت الله تعالى نظر الناس إلـى أنّ الأمر وصـل إليهم بعد أن أفلت شمس أمـم سبقتهم: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾[2].

- يعطـي قانـون التـداول للمسلميـن وللحـركات الاجتماعيّـة التـي تنشط في أوساطهـم الحـق بإعـادة النظر في الأدعيـاء الذين يسقطـون في منتصف الطريـق عنـد أوّل امتحـان وهو التمحيص الـذي تشير إليه الآيـة. وفي هذا السيـاق يقع الـكلام المنسوب إلى الإمـام الحسين عليه السلام حيـث يقول: «**إنَّ النّاسَ عَبيدُ الدُّنْيا وَالدِّينُ لَعِقٌ عَلى ألسِنَتهم، يَحُوطُونَهُ ما دَرَّت مَعائِشُهُم، فَإذا مُحِّصُوا بِالبَلاءِ قَلَّ الدَّيّانُونَ**»[3].

شروط التداول وقيوده

يذكـر القرآن الكريـم مجموعة من الشـروط لتحقّق سنّة التـداول وإصابتها من تصيبه سلبًا وإيجابًا. وأهمّ هذه الشروط:

- الظلم والطغيان، وذلـك كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾[4]. وذلـك

(1) سورة القصص، الآية 5.

(2) سورة يونس، الآية 14.

(3) ابن شعبة الحرّاني، تحف العقول عن آل الرسول، الطبعة الثانية، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، 1404هـ.ق.، ص 245.

(4) سورة يونس، الآيتان 13و 14.

أنّ هـذه الآ أنّ هـذه الآية الأرض تعاقبت عليها أجيال وأمـم، والإهلاك الذي حاق ببعض الأمم ليس بالضرورة أن يكون إهلاك إبادة ماديّة، بمعنى أن يموت أفـراد الأمّـة كلّهم بعـذاب ينزله الله عليهم؛ بـل هو أعمّ من ذلـك فقد يكون إهـلاكًا للأمّة بمعنى تبديد الوحدة الاجتماعيّة التـي تربط بين أفرادها. وقد تقدّمت الإشارة إلى هذا الأمر سابقًا.

- والمعصيـة والتمرّد علـى إرادة الله وشريعته كما يفيـد قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾[1]. تحدّثنـا هـذه الآية عـن تمكين إحـدى الجماعـات البشريّة وتوفيـر الله عـزّ وجلّ لها كلّ مقومّات البقاء؛ ولكن لمّا تمرّدت على إرادة الله التشريعيّة وأدارت الظهر للقيم الدينيّة طحنتها سنّة التداول وأنشأ الله قومًا آخرين محلّها.

(1) سورة الأنعام، الآية 6.

وقفة تأمّلية

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾[1] أي: نصرفها مرّة لفرقة، ومرّة عليها...، وإنّما يصرف الله الأيام بين المسلمين، وبين الكفّار، بتخفيف المحنة عن المسلمين أحياناً، وتشديدها عليهم أحياناً، لا بنصرة الكفّار عليهم، لأنّ الله لا ينصر الكفّار على المسلمين، لأنّ النصرة تدلّ على المحبة، والله تعالى لا يُحبّ الكافرين، وإنّما جعل الله الدنيا متقلّبة، لكيلا يطمئن المسلم إليها، ولتقلّ رغبته فيها، أو حرصه عليها، إذ تفنى لذاتها، ويظعن مقيمها، ويسعى للآخرة التي يدوم نعيمها.

وإنّما جعل الدولة مرّة للمؤمنين، ومرّة عليهم، ليدخل الناس في الإيمان على الوجه الذي يجب الدخول فيه كذلك، وهو قيام الحجّة، فإنّه لو كانت الدولة أبداً للمؤمنين، لكان الناس يدخلون في الإيمان على سبيل اليمن والفأل. على أنّ كل موضع حضره النبي ﷺ لم يخل من ظفر، إمّا في ابتداء الأمر، وإمّا في انتهائه.

تفسير مجمع البيان، الشيخ الطبرسي، ج2، ص400.

(1) سورة آل عمران، الآية 140.

سنة التداول

تعريف التداول

لغة: الانتقال مع حصول تحوّل في الحالة والكيفيّة.

اصطلاحاً: بانتقال الغلبة والتفوّق من جماعة إنسانيّة إلى جماعة أخرى وفق شروط وضوابط.

التداول في القرآن

البلاء عام: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾.

سنة إلهية: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

البقاء للمؤمن: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ۖ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

إن يمسسكم قرح

التداول: إنّ الله لا يضمن بقاء الأحوال على ما هي عليه لأحدٍ من الناس فالدنيا دار عمل وتضحية وليست دار نعيم مقيم.

الهزيمة والنصر: النصر والهزيمة ليس أيٌّ منهما قدرًا لازمًا، فإذا انتصر المسلمون عليهم أن لا يغترّوا بهذا النصر ولا يغفلوا عن قدرة الله على إدالة السلطة منهم إلى غيرهم.

التداول والتفكر: بإعادة النظر في الأدعياء الذين يسقطون في منتصف الطريق عند أوّل امتحان وهو التمحيص.

شروط التداول وقيوده

الظلم والطغيان: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾.

المعصية والتمرّد: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾.

12

السنن المرتبطة بالنصر(2)

سنّة الاستبدال

مفاهيم محورية:

- **الاستبدال في اللغة والاصطلاح القرآني.**
- **فلسفة الاستبدال الإلهي.**
- **الاستبدال في القرآن الكريم.**
- **تفسير آية** ﴿مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ﴾.

موعظة قرآنية

﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[1].

مقدّمة

سنّة الاستبدال من السنن المرتبطة بمفهوم النصر أيضًا. وقد ورد هذا المفهوم أيضًا في القرآن الكريم في سياق الحديث عن النصر والنصرة. ومن هنا فإنّ الربط بينه وبين النصر هو ربط قرآنيّ وليس ربطًا تحليليًّا شخصيًّا. ويُستحسن الحديث أوّلًا عن مفهوم الاستبدال في اللغة والاصطلاح القرآنيّ قبل الدخول في بعض الأبحاث المرتبطة بهذا القانون القرآنيّ الاجتماعيّ.

الاستبدال في اللغة والاصطلاح القرآنيّ

المادّة الأصلية لهذا المفهوم هي الحروف الثلاثة الآتية: الباء والدال واللام. وهي تعني في اللغة ترجيح شيء على شيء آخر. وقد ورد هذا المفهوم في أكثر من آية من آيات القرآن الكريم، ومنها ما ورد في سياق الحديث عن بني إسرائيل في

(1) سورة التوبة، الآية 39.

قوله تعالى: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾[1]. ومعنى هذه الآية كما هو واضحٌ أتتّخذون الذي هو أدنى وأقلّ قيمةً بديلًا عن الذي هو خيرٌ وأحسن قيمة. وهذا المعنى لمادّة بدل هو حاصل ما يتبنّاه أهل اللغة وعلماء التفسير، يقول المصطفوي: «**أنّ الأصل في المادّة هو وقوع شيءٍ مقام غيره**»[2]. وقد يوحي هذا التفسير بعدم الفرق بين الاستبدال والتداول؛ ولكن يكشف التدقيق في الكلمتين عن شيء من الفرق بينهما يتبيّن بعد البحث عن فلسفة الاستبدال.

فلسفة الاستبدال الإلهيّ

تستند فكرة الاستبدال إلى أنّ الإنسان خُلِق على هذه الأرض بإرادة الله سبحانه، ولمّا كان الله منزّهًا عن العبث واللغو: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ﴾[3]، و﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾[4]. وإذا كان الأمر على هذا النحو فمن البديهيّ السؤال عن السبب وعن الحكمة التي اقتضت أن يخلق الله الإنسان على الأرض، بل أن يخلق له الأرض وغيرها من المخلوقات كما تفيده الآيات الدالّة على تسخير كثيرٍ من الأشياء للإنسان: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ﴾[5].

وبالرجوع إلى كتاب الله عزّ وجلّ نجد أنّه يبيّن لنا الهدف من خلق الإنسان على الأرض بعبارات عدّة لا ندّعي أنّها تدلّ على معنًى واحدٍ بالضرورة ولكنّها على أيّ حال تفيد أنّ ثمّة هدفًا يريد الله تحقيقه على يد الإنسان، فمرّة يعبّر عن هذا الهدف

(1) سورة البقرة، الآية 61.
(2) التحقيق في كلمات القرآن، ج 1، ص 251.
(3) سورة الأنعام، الآية 73.
(4) سورة الأنبياء، الآية 16.
(5) سورة لقمان، الآية 20.

باسم الخلافة والاستخلاف، كما في قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[1].

وأخرى يعبّر عنه بالعبادة كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[2].

وثالثةً يعبّر عن هذا المعنى بقوله: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾[3].

وهذه الآية وغيرها ممّا يمكن العثور عليه بمزيد من البحث تفيد أنّ لله من وراء خلق الإنسان غرضًا وغايةً. وقد أرسل الله رسله تترى إلى البشريّة ليحفظوا مسيرة الإنسانيّة على هذا الخطّ الإلهيّ وكتب على نفسه أن ينصر رسله وأن يحقّق الأهداف التي أرسلهم من أجلها، كما كتب على نفسه أن يحقّق الأهداف التي من أجلها خلق الإنسان نفسه. فإذا أبى جيلٌ من الأجيال أو قرنٌ من القرون بحسب التعبير القرآنيّ عن تحقيق الأهداف التي يريد الله تحقيقها على يديه، جرت عليه سنّة الاستبدال وأحلّ قومًا آخرين محلّ القوم الذين فشلوا في تحقيق ما يراد منهم تحقيقه. وهذا هو الاستبدال أي هو نقل راية الله من يدٍ إلى يدٍ، وقد حصل هذا مع رسول الله ﷺ مرّات عدّة في معاركه. ومن أشهر هذه المرّات إعطاؤه الراية إلى أمير المؤمنين يوم خيبر بعد فشل عدد من أصحابه في فتح الحصن.

(1) سورة البقرة، الآية 30.
(2) سورة الذاريات، الآية 56.
(3) سورة هود، الآية 61.

الاستبدال في القرآن الكريم

ورد في القرآن العديد من الآيات التي تتحدّث عن الاستبدال كفعل منسوبٍ إلى الله تعالى، ومفعوله هو المسلمون في لغةٍ أشبه بالتهديد، وكأنّها دعوة إلى المسلمين أن لا يحسبوا أنّهم القناة الوحيدة لتحقيق إرادة الله تعالى، بل هم إحدى القنوات التي تمرّ من خلالها المشيئة الإلهيّة التي لا بدّ من أن تتحقّق إذا أراد الله لها أن تتحقّق، من هذه الآيات:

- قوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾[1].
- وقوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾[2].

ووجه الربط بين هاتين الآيتين وبين بحث النصر واضحٌ؛ إذ إنّ كلتاهما وردت في سياق التحريض على نصرة النبيّ ﷺ وفي سياق حثّ المسلمين على الإمساك براية التوحيد بقوّة.

- وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[3].

(1) سورة محمد، الآية 38.
(2) سورة التوبة، الآية 39.
(3) سورة المائدة، الآية 54.

تفسير آية ﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[1].

تحذّر الآية الكريمة أنّ كلّ من يرتدّ عن دين الله تعالى والإيمان الصادق به وبتعاليمه وبأنبيائه ورسله، فلا يطيعه في أمره ولا يلتزم بأحكامه ولا يعمل بإرادته، بل يستغني ويتولّى معرضاً عن الدين الحنيف والملّة الحقّة، فسوف يستبدل الله به من هو أحقّ منه بهذه المكرمة؛ ممّن يحبّون الله ويحبّون أن يعبد في أرضه، ولا يرتدّون عن تعاليم وأحكام دينه، ولا يتخلّفون عن الجهاد والتضحية بكلّ ما يملكون في سبيله، بل يقبلون على الجهاد بصدر رحب وقلب مستبشر بلقاء الله ورضوانه، ولا يخافون من لوم الناس والمنافقين اللائمين لهم عند أدائهم لواجباتهم والدفاع عن الحقّ، لأنّهم على ثقة بالله وبأنّهم على دين الحقّ. وعليه فإنهم لن يضرّوا الله شيئاً بل المتضرّر هم المنافقون والمرتدّون لأنهم حرموا من هذا الفضل العظيم والنعمة الكبرى.

تتحدّث الآية الكريمة عن المرتدّين الذين تنبّأ القرآن بارتدادهم عن الدين الإسلاميّ الحنيف. وهذه الآية أتت بقانون عام يحمل إنذاراً لجميع المسلمين، فأكّدت أنّ من يرتد عن دينه فهو لن يضر الله بارتداده هذا أبداً، ولن يضرّ الدين ولا المجتمع الإسلاميّ أو تقدّمه السريع، لأنّ الله كفيل بإرسال من لديهم الاستعداد لحماية هذا الدين، حيث تقول الآية الكريمة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ ﴾ ثمّ تتطرق الآية إلى صفات هؤلاء الحماة الذين يتحملون مسؤولية الدفاع العظيمة، وتبيّنها على الوجه التّالي:

(1) سورة المائدة، الآية 54.

1. إنّهم يحبّون اللّه ولا يفكرون بغير رضاه، فاللّه يحبّهم وهم يحبّونه، كما تقول الآية: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾.

2 و 3. يبدون التواضع والخضوع والرأفة أمام المؤمنين، بينما هم أشداء أقوياء أمام الأعداء الظالمين حيث تقول الآية: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

4. إنّ شغلهم الشاغل هو الجهاد في سبيل اللّه، إذ تقول الآية: يُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

5. وآخر صفة تذكرها الآية لهؤلاء العظام، هي أنّهم لا يخافون لوم اللائمين في طريقهم لتنفيذ أوامر اللّه والدفاع عن الحق، حيث تقول الآية: ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾، فهؤلاء بالإضافة إلى امتلاكهم القدرة الجسمانية، يمتلكون الجرأة والشّجاعة لمواجهة التقاليد الخاطئة، و الوقوف بوجه الأغلبية المنحرفة التي اعتمدت على كثرتها في الاستهزاء بالمؤمنين.

وهناك الكثير من الأفراد المعروفين بصفاتهم الطيبة، لكنّهم لا يبدون الكثير من التحفظ أمام الفوضى السائدة في المجتمع وهجوم الأفكار الخاطئة لدى سواد الناس أو من الأغلبية المنحرفة، ويتملّكهم الخوف والجبن، وسرعان ما يتركون الساحة ويخلونها للمنحرفين، في حين أنّ القائد المصلح ومن معه من الأفراد بحاجة إلى الجرأة والشهامة لتطبيق أفكارهم واصلاحاتهم. وعلى عكس هؤلاء فالذين لا يمتلكون هذه الصفات الروحية الرفيعة، يقفون سدّا وحائلاً دون حصول الإصلاحات المطلوبة.

وتؤكّد الآية في الختام على أنّ اكتساب أو نيل مثل هذه الامتيازات السامية (بالإضافة إلى الحاجة لسعي الإنسان نفسه) مرهون بفضل اللّه الذي يهبها لمن يشاء، ولمن يراه كفؤا لها من عباده، حيث تقول الآية في هذا المجال: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾.

وفي النهاية تبيّن الآية أنّ مجال فضل اللّه وكرمه واسع، وهو يعرف الأكفاء والمؤهلين من عباده، كما تقول الآية: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

خاتمة

في ختام الحديث عن النصر الإلهيّ وشروطه والسنن المرتبطة به، نسأل الله عزّ وجلّ أن يستعملنا في أهدافه وغاياته وأن نكون قنوات تمّر من خلالها مشيئته وإرادته وأن لا يستبدل بنا غيرنا. والمسلمون دائمًا مطالبون أن تكون يدهم على الزناد في المعركة الخارجيّة بينهم وبين العدوّ الذي لا يراعي لهم حرمة إن هو ظفر بهم وتغلّب عليهم، بل هو يتحيّن الفرص لإنشاب أظافره ومخالبه لتخريب كلّ الوجود الماديّ والمعنويّ للإسلام والمسلمين. والحرب مع العدوّ تبقى سهلة على الرغم من كلّ صعوباتها إذا قيست بالجهاد مع النفس التي هي أعدى أعداء الإنسان. ومن استطاع الانتصار على نفسه غلب الدنيا، ومن انهزم أمام نفسه ورغباتها وشهواتها انهزم أمام الدنيا وخسر كلّ الانتصارات التي نالها.

وقفة تأمّلية

﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1].

ورد أنّ هذه الآية وما قبلها نزلت في معركة تبوك حين كان النبي ﷺ عائداً من الطائف إلى المدينة، وهو يُهيّئ الناس ويعبّؤهم لمواجهة الروم. وقد ورد في الروايات الإسلامية أنّ النبي لم يكن يُبيّن أهدافه وإقدامه على المعارك للمسلمين قبل المعركة لئلّا تقع الأسرار العسكرية بيد أعداء الإسلام، أما في معركة تبوك، لمّا كانت المسألة لها شكل آخر، فقد بيّن كل شيء للمسلمين بصراحة، وأنّهم سيواجهون الروم، لأنّ مواجهة إمبراطورية الروم لم تكن مواجهة بسيطة كمواجهة مشركي مكة أو يهود خيبر، وينبغي على المسلمين أن يكونوا في منتهى الاستعداد وبناء الشخصية، أضف إلى كل ذلك أنّ المسافة بين المدينة وأرض الروم كانت بعيدة غاية البعد، وكان الوقت صيفاً قائظاً، وهو أوان اقتطاف الثمار وحصد الحبوب والغلّاة. هذه الأمور اجتمعت بعضها إلى بعض فصعب على المسلمين الخروج للقتال. حتى أنّ بعضهم تردّد في استجابته لدعوة الرسول الأكرم ﷺ. فالآيتان -محل البحث- نزلتا في هذا الظرف، وأنذرتا المسلمين بلهجة صارمة لمواجهة هذه المعركة الحاسمة.

الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، آية الله الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، ج6، ص52.

(1) سورة التوبة، الآية 39.

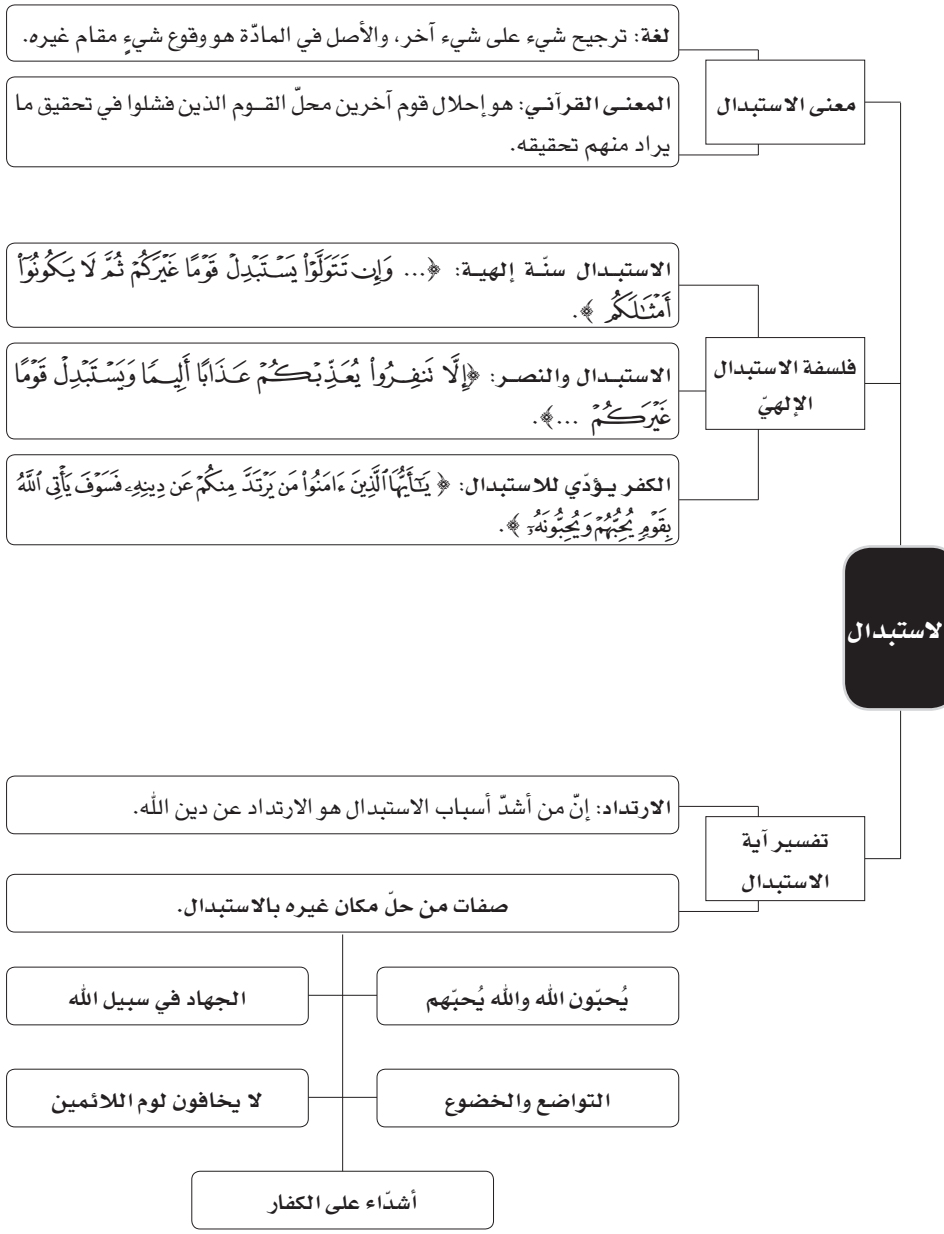
الاستبدال
معنى الاستبدال
لغة: ترجيح شيء على شيء آخر، والأصل في المادّة هو وقوع شيءٍ مقام غيره.
المعنى القرآني: هو إحلال قوم آخرين محلّ القوم الذين فشلوا في تحقيق ما يراد منهم تحقيقه.
فلسفة الاستبدال الإلهيّ
الاستبدال سنّة إلهية: ﴿... وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾.
الاستبدال والنصر: ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ...﴾.
الكفر يؤدّي للاستبدال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾.
تفسير آية الاستبدال
الارتداد: إنّ من أشدّ أسباب الاستبدال هو الارتداد عن دين الله.
صفات من حلّ مكان غيره بالاستبدال.
يُحبّون الله والله يُحبّهم
الجهاد في سبيل الله
التواضع والخضوع
لا يخافون لوم اللائمين
أشدّاء على الكفار

جمعية المعارف الإسلامية الثقافية
AL - MAAREF ISLAMIC CULTURAL ASSOCIATION
بيروت ـ لبنان ـ المعمورة ـ الشارع العام
تلفون: 01/471070 فاكس: 01/476142
www.almaaref.org
Email:info@almaaref.org